

صهر الوعي

أو في إعادة تعريف التعذيب...

الأسير: وليد دقة

ليس هناك أشدّ وأقسى من أن يعيش الإنسان إحساساً بالقهر والعذاب دون أن يكون قادراً على وصفه وتحديد سببه ومصدره. إنه الشعور بالعجز وفقدان الكرامة الإنسانية عندما يجتمع اللايقين بالقهر، فيبدو لك بأنه ليس العالم وحده قد تخلى عنك وإنما لغتك قد خانتك من أن تصف عذابك وأن تعرفه، أو حتى أن تقول .. آخ مفهومة ومدركة من قبل الآخر الحرّ.

لتحتل قضيتك كأسير أجندات السياسيين والإعلاميين، وأن تحظى باهتمام لجان حقوق . فتلجأ حيناً لهذا الغرض، وللضرورات الإعلامية إلى تبسيط المركب في عذابك، فيبدو عذاباً بسيطاً لا يستحق الإهتمام. أو تضطر حيناً آخر للتهويل والتضخيم، فيكون من أسهل على سجانك أن يفند ادعاءاتك . ليكرس عزلك عن العالم مجدداً لتواصل عذابك وحيداً فتقف أمام خيارين؛ إما أن تكف عن كونك وتتحوّل كلياً إلى موضوع لسجانك، وإما أن تحوّل ذاتك لموضوع بحث لإعادة تعريف التعذيب وأسبابه. الأمر الذي لن يكون بالمهمة السهلة على الإطلاق.

يعني أن تكون المُعذَّب والذي يُبلغ عن التعذيب.. أن تكون المشهد والمشاهد، أن تكون التفاصيل والتجريد

يشعر الأسير الفلسطيني في سجون الإحتلال الإسرائيلي بحالة من العجز النابعة من صعوبة توصيف حالة القمع التي يعيشها منذ بداية الإنتفاضة الحالية. فقد أصبح القمع والتعذيب مركباً وحادثياً يتمشى مع خطاب حقوق الإنسان، حيث يحتاج الأخير ومؤسساته لجهد خاص لإثبات بعض الخروقات التي غالباً ما تقدم من جانب القضاء والإعلام الإسرائيلي على أنها الإستثناء لقاعدة الإلتزام بحقوق الإنسان والأسرى. في للتغطية، وشفافية لغرض التعقيم وحقائق لإخفاء الحقيقة.

إن القمع الحداثوي مُقمع مخفي ويقدم على أنه استجابة لحقوق الإنسان، إنه قمع لا صورة له، ولا يمكن تحديده بمشهد. إنه مجموعة من مئات الإجراءات الصغيرة والمنفردة، وآلاف التفاصيل التي لا يمكن أن تدلّ منفردة على أنها أدوات للتعذيب. إلا إذا أدركنا الإطار الكلي والمنطق الذي يقف من وراء هذه المنظومة. إنه تماماً كالإستغلال في اقتصاديات السوق الحرّ في ظلّ العولمة، الذي يقدم دوماً على أنه ضرورة لرفع معدلات النمو الإقتصادي، إنه كالإستغلال الذي لا وجه له أو وطن . حيث تمتد

أذرع احتكاره كالأخطبوط إلى كل زاوية من زوايا العالم، وإلى كل تفصيل من تفاصيل حياتك. المُستغل عاملاً أو مستهلكاً قد تصبح وفي نفس الآن مالگاً لأسهم الإحتكار الذي يستغلك.. هكذا بحيث تضع الفواصل والحدود بين المستغل والم . فيغدو فهم الإستغلال أو تعريفه مهمة صعبة تكاد تكون مستحيلة في نظم الإنتاج الحديثة وسوق العولمة الحرّ.

لا يشبه القمع والتعذيب في السجون الإسرائيلية حالات القمع والتعذيب التي تصفها أدبيات السجون في . ليس هناك حرمان فعلي من الطعام أو الدواء، ولن تجدوا من هم

. لا يكبل الأسرى كما في الروايات بسلاسل مشدودة لكنتل حديدية طوال النهار. فلم يعد الجسد الأسير في عصر ما بعد الحداثة هو المستهدف مباشرة، وإنما المستهدف هو الروح والعقل. لا نواجه هنا ما واجهه ووصفه فوتشيك في ظل الفاشية في كتابه " ، وليس الحديث هنا عن ما يشبه باهرة" للطاهر بن جلود. ولن تجدوا وصفاً يشبه ما وصفته مليكة " في رواية " "

هكذا هو حال الأسرى الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية موضوع دراستنا. يشكو غير قائم، وما هو قائم غير قادرين على وصفه. إنهم يواجهون تعذيباً ليس بمقدورهم تحديد شكله ومصدره. وهذه الأوراق لا ندعي بأننا نقدم من خلالها تفسيراً شاملاً، أو تعريفاً وافياً للتعذيب. بل هي ليست أكثر من صرخة تحاول قول افعلوا شيئاً قبل فوات الأوان. فمهمة كشف ما يجري في السجون وتوضيحه للرأي العام في إطار تعريف جديد للتعذيب، هي مهمة

الوطنية والقوى السياسية الفلسطينية. فالقضية المطروحة ليست قضية حقوقية أو إنسانية وإنما سياسية

إن ه تدعي بأنها بحث علمي، فقد كتبت في السجن حيث لا مصادر جديّة يمكن الإعتماد عليها، واعتمادنا أكثر على الذاكرة. على الأقل في تناولنا لما يجري في المعازل التي بنتها إسرائيل. ن عن العالم ما يقارب لتبيان ما يجري في السجون الصغيرة على أنه ليس مجرد احتجاج وعزل لأسرى يشكلون خطراً أمنياً على إسرائيل. هو جزء من برنامج شامل ومخطط علمي ومدروس يهدف إعادة صهر الوعي الفلسطيني. إن حالة نجاح أو فشل هذا المخطط مرهونة بالدرجة الأولى بقدرتنا على كشفه والوقوف على تفاصيله المحرجة في كثير من الأحيان، بعيداً عن محاباة الذات والكذب عليها. علمي وليس خطاباً حماسياً يشيد بالأسرى ونضالاتهم وتضحياتهم، بحث يجيب على الأسئلة والتساؤلات التي نأمل أن نتمكن من إثارتها في هذه الأوراق.

ولي /

2009

إبادة سياسية..

.. وفق الإبادة المادية

ذهل الوفد الجنوب أفريقي الذي زار فلسطين² من حجم وطبيعة الإجراءات الإسرائيلية ذات الطبيعة الشمولية التي فرضتها على الفلسطينيين، والتي وصفوها بأنها إجراءات فاقت يد ما قامت به حكومات جنوب أفريقيا في مرحلة الأبرتهايد. فلم يكن هناك وفي أسوأ مراحل الفصل العنصري شوارع للسود وأخرى للبيض، كما هو حاصل في الأراضي المحتلة حيث شوارع للعرب وأخرى لليهود. ولم يكن الفصل فصلاً كاملاً ومطلباً إلى هذا الحد الذي أقامه الإح. فقد ظلت على الدوام مناطق معينة يلتقي بها البيض والسود. وما زاد هذا الوفد الجنوب أفريقي ذهولاً وحيرة، وجعل مصطلح " غير قادر على توصيف الحالة الفلسطينية تحت الإحتلال وتعريفها، هي الحواجز التي تفصل ليس بين الفلسطينيين والإسرائيليين إنما بين الفلسطينيين أنفسهم. فإسرائيل كما هو معروف قسمت الأراضي المحتلة وقطعتها لمعازل صغيرة حولت حياة السكان إلى جحيم.

إن هذه الدراسة تدعي بأن اختلاف الهدف النهائي الذي تسعى حكومات إسرائيل لتحقيقه منذ السنة الثانية يقيا تحقيقه عبر سياسة الفصل العنصري. هو ما يجعل عات الإسرائيلية بهذه الشمولية و عمق والسيطرة الكاملة على حياة المواطنين الفلسطينيين. فالهدف ليس الفصل العنصري بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وإنما العنصرية هي أداة لتحقيق الهدف الأساسي الذي هو إعادة صهر الوعي الفلسطيني بما يتسق ومشروع الدولة العبرية. عنصرية في هذا السياق ليست ية إسرائيلية شعبية منفلة وغير عاقلة كالعنصرية التي يمثلها المستوطنون، وإنما عنصرية منظمة ها كامل المؤسسة الإسرائيلية بمنطقها وتبريرها القانوني والأخلاقي.

ركت إسرائيل أن المشكلة الحقيقية ليست مع القيادة الرسمية والمفاوض الفلسطيني، وإنما مع الشعب الفلسطيني الذي يرفض سقف الرؤيا الإسرائيلي للحل، وييدي استعدادية للمقاومة مما يجعل رافد الفصائل المقاومة من المقاومين لا ينضب ويحول أي إمكانية للتسوية مع المفاوض الفلسطيني لإمكانية مستحيلة التطبيق.

لقد صرّح قائد الأركان الإسرائيلي السابق "بوجي يعلون" أثناء سنوات خدمته العسكرية في الإنتفاضة، وفي أكثر من مناسبة وعلى نحو واضح وصريح، بأنه لا بد من "إعادة صهر الوعي الفلسطيني"³ الخطط العسكرية لجيشه تستهدف تحقيق ذلك.

وعليه فإن تقسيم الأراضي المحتلة إلى معازل نقرأه في هذا السياق الإسرائيلي. سياق خطة صهر الوعي. وإن كان يقدم التقسيم كإجراء أمني يهدف منع تنقل المسلحين، وإحباط صلة تحقق بين المناطق

² + مقال في هآرتس كتبه عميرة هس أو جدعون ليفي
³ .تصريحه ظهر في الصحف العبرية

الفلسطينية المختلفة نقلاً للمعدات والخبرات القتالية، أو الوصول لقلب إسرائيل. وهي تستهدف فيما تستهدف تحقيق ذلك فعلاً. لكنها بالأساس أداة عنصرية من أدوات صهر الوعي بصفته الهدف العام الذي حدده قائد الأركان يعلنون لجيشه.

لقد عنت المؤسسة الإسرائيلية في البداية بعملية "صهر الوعي"، هو جعل فكرة المقاومة فكرة مكلفة عبر هدم البيوت والقتل والتدمير الواسع. وقد بات من الواضح تماماً اليوم بأن حجم القتل والهدم والتخريب، يده المؤسسة العسكرية، بالإضافة

واطنين الفلسطينيين، يفوق حاجات سرائيل الأمنية. فقد أدرك القادة الإسرائيليو القوة العسكرية لوحدها، وفي ظل غياب أفق سياسي حقيقي سيجنون ثماراً ونتائج عكسية. يوماً لمواطنين عزل، جعل الموت أسهل من مراقبة مشهد الموت على مدار الساعة كل يوم. لقد دفع هذا الموت العشرات من الشباب يوماً للإنضمام كاستشهاديين لصف . ووجدوا به خلاصاً يحمل العزة

4

إن أي مقاومة بحاجة لبنية تحتية مادية ومعنوية، والجيش الإسرائيلي بإجراءاته التي استهدفت البنية التحتية المادية للمقاومة بغية الوصول لنقطة "صهر الوعي". وعلى نحو أدق إعادة تقييم الأدوات والسبل ل لهذا الهدف.

فإذا كان استهداف البنية التحتية المادية للمقاومة غير كاف لإحداث اختراق في الوعي الجماهيري الفلسطيني، عبر مراكمة كتلة حاسمة في فترة زمنية قصيرة، من قتل ودمار وإغراق المشهد بالدم فإنه بدا من الضروري إضافة مركبات جديدة لعملية الإستهداف التي يعتقدون بأنها كفيلة لإحداث الإختراق المأمول "صهر الوعي الفلسطيني".

إن المركبات الجديدة التي استهدفت هي عناصر البنى التحتية المعنوية للمقاومة. "البنية التحتية المعنوية". نقصد بشكل خاص مجموعة القيم الجامعة التي تجسد مقولة الشعب الواحد في الحياة اليومية. إنه لمن غير الممكن بل والمستحيل أيضاً أن توجد مجموعة من البشر طاقاتها وإمكاناتها بل وأن تصبح مجموعة، دون أن يكون لها هدف أو مجموعة من الأهداف المشتركة لغالبية أفرادها. وإنه لمن المستحيل تماماً أن تتشكل مثل هذه الأهداف دون أن تكون هناك قيم جامعة تمثل رابطاً معنوياً وقيماً ينظم حياة أعضاء هذه المجموعة والتي من شأنها أن تحولهم من أفراد –

لقد مثل التعاضد والتكافل الإجتماعي الفلسطيني بين جميع الفئات والطبقات والمناطق الجغرافية، الذي سيد الحي والمادي المباشر لمقولة الشعب الواحد والمصير والأمال والأهداف الواحدة. وعندما نشير إلى الإستهداف الإسرائيلي للبنية التحتية المعنوية للفلسطينيين بهدف صهر وعيهم، إنما نقصد تماماً استهداف هذه التجسيديات اليومية الصغيرة منها والكبيرة، ومجموعة لمفاعيل المنظمة والعفوية، الفردية والجماعية، المتناثرة والمركزة، والتي تعبر عن تركيبة نفسية ومعنوية تجعل الصمود تحت بطش الآلة العسكرية الإسرائيلية أمراً ممكناً، بل وجعلت ليس الصمود السلبي المتلقي ممكناً فقط وإنما أيضاً الصمود الإيجابي المبادر.

⁴ من خلال استبيان مررته على الأسرى ممن حاولوا تنفيذ عمليات استشهادية ولم ينجحوا. تبين أن الغالبية الساحقة منهم يعززون دافعهم للعمل لممارسات الإحتلال وما شاهدوه من قتل وتحديداً قتل الأطفال، وقد أشاروا جميعهم نتيجة لذلك بأنهم كانوا يشعرون كمن ينتظر . ففضلوا الموت بالوقت والطريقة التي يختارونها.

إننا نميل للاعتقاد في هذه الدراسة بأن إسرائيل ومنذ عام 2004 أنجزت نظاماً علمياً شاملاً وخطيراً، يعتمد أحدث النظريات في الهندسة البشرية وعلم نفس الجماعات بغية صهر الوعي الفلسطيني بتفكيك قيمه . إننا أمام مجموعة من النظم والمستويات المتناغمة، السياسية والعسكرية والاقتصادية التي يمثل

"صهر الوعي" واحداً من أهم أهدافها. فيما يمثل هذا النظام الإسرائيلي بكليته حال السياسية – بوليتي سايد). فرغم إدراكنا للإشكالية التي قد يثيرها مثل هذا الاستخدام في تعريف الفلسطينية كإبادة سياسية ن النظم التي وضعتها إسرائيل مخيفة بعلميتها ومنطقها العقلي وتشبه إلى حد بعيد حالات عرفت كإبادة سياسية⁵. حيث تشمل خطط ومواقف تبدو للمراقب بأنها فوضى وارتباط وتناقض في السياسة الإسرائيلية لكنها في حقيقة الأمر فوضى منظمة تهدف إلى التالي:

1. تفكيك البنى والمؤسسات الفلسطينية الاقتصادية والثقافية ومؤسسات المجتمع المدني، ليس تفكيكاً ك وإجهازاً كلياً وإنما إبقاها دون النظم وفوق الفوضى.

2. التفاوض السياسي الدائم دون توقف وخلق الوهم بأن الحل بمتناول اليد وشيك خلف المنعطف، وفي المقابل خلق وتثبيت الوقائع على الأرض عبر الإستيطان هكذا ليبقى الحال دون الحل وأكثر من الجمود.

3. تفكيك البنية التحتية لمقولة الشعب عبر الإجهاز على القيم الجامعة للشعب الفلسطيني لا سيما قواه وفئاته الحاملة والمدافعة عن هذه القيم كالأسرى بصفتهم الطليعة النضالية. هكذا ليغدو الشعب الفلسطيني أقل من شعب وفوق الإبادة المادية.

إن أخطر ما في هذا النظام أنه من الصعب الإحاطة به لا سيما وأنه نظام مقسم لمشاهد منفردة لا يرى منها المواطن إلا أجزاءً محددة. فيما يرى الإحتلال ويراقب ويحيط بكل المشهد الفلسطيني بأقل ما يمكن من الإمكانيات والزمن والتكلفة. وهذه الإحاطة الشاملة والنافذة لحياة الفلسطيني لم يكن بالإمكان تحقيقها دون التطور الهائل في تكنولوجيا المعلومات ووسائل الإتصال والمراقبة الألكترونية. ففي نظرة غير متفحصة بشكل خاص يمكن ملاحظة وبسهولة ما يعيشه الفلسطينيون شمولي وضعته إسرائيل، يشبه إلى حد بعيد ما وصفه جورج أورويل عن " " في روايته (1948). حيث يراقب الأخ الأكبر – السلطة ليس السلوك والمواقف وإنما الآراء والأفكار التي تدور في . فإسرائيل تراقب المواطن الفلسطيني وتسيطر على حياته بالكامل " " .

كان ذلك عبر الكاميرات المنتشرة في المدن، كالقدس، أو مراقبتها لكل المدن الفلسطينية عبر طائرات الإستطلاع والأقمار الإصطناعية. أو مراقبة الأثير مثل الهواتف المحمولة والفاكسات وأجهزة الكمبيوتر.

⁵. بل ونعتقد بأنه يمكن استخدام مفهوم إبادة شعب في الحالة الفلسطينية، أنظر ما كتبه القاضي كارلوس روسينسكي بقرار إدانته لأحد مجرمي الحرب في الأرجنتين.

Federal oral court no.1 case NE 225/06, September 2006, www.rodolfwalsh.org

أنظر أيضاً:

United nations office of the high commissioner for Human Rights "convention on the prevention and punishment of genocide" approved December 9, 1948, www.org.

فقد اعتبر الجرائم التي حصلت بين الأعوام 1976-1983 إبادة شعب، رغم إقراره بأن معاهدة الأمم المتحدة لمنع إبادة الشعب تعرف الإبادة على أنها "النية في إبادة مجموعة قومية، إثنية، دينية، أو عرقية بكاملها أو جزء منها". صحيح أن المعاهدة لم تشمل الإبادة لأسباب سياسية لكن الجمعية العامة للأمم المتحدة أجمعت في 11 / ديسمبر 1946 على قرار يقضي بمنع إبادة شعب والذي يشمل (عرقية دينية سياسية لها أو جزء منها) "سياسية" من المعاهدة بعد عامين من تاريخ القرار جاء استجابة لطلب ستالين.

الأمر الذي يمكنها عبر هذه السيطرة الشمولية التدخل في العمليات الإجتماعية والإقتصادية والتوجهات السياسية لمجتمع بأكمله. هذا بالإضافة لسيطرتها عبر الحواجز على مداخل ومخارج المدن والمحافظات. وبهذا المعنى، فإن الإبادة السياسية التي تنفذها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، هي مشروع بالنظريات والوات التي تستخدمها وهو مشروع باعتقادنا لم يواجه شعب التاريخ مثيلاً له من حيث مستوى التقنية والدقة والشمول، إلا الإبادة الجماعية – المحرقة التي واجهها اليهود في الحرب العالمية الثانية على يد النازية.

على الرغم من صعوبة الإحاطة بهذا النظام، فإنه بالإمكان تبسيطه وإدراك مركباته وتعميقاته عبر إجراء بعض المقارنات بين نموذج السجون الذي ستركز به موضوع بحثنا ودراستنا، من جهة، مع ما يجري في الأراضي المحتلة من جهة أخرى. حيث نجد تطابقاً بين إجراءات الإحتلال هناك مع ما يجري هنا في السجون الإسرائيلية هي المختبر الذي يتم به اختبار السياسات التي تستهدف الحالة المعنوية والإجتماعية الفلسطينية.

إن التشابه بين السجون والمعازل في الأراضي المحتلة قد يفيد في حل الإشكالية المفاهيمية في توصيف الحال الفلسطينية.. حيث توصف حيناً بالفصل العنصري وحيناً آخر بالجيتو. فيما تجاوز الواقع هذه التوصيفات، وكثيراً ما ترتبك القرارات التي قد تستند إليها. فقد تصف بعض أجزاء المشهد الفلسطيني لكنها عاجزة عن شمل كل المشهد والواقع الفلسطيني. فالفصل بين الفلسطيني والفلسطيني مثلاً لا يمكننا توصيفه على أنه فصل عنصري. كما أن معازل الفلسطينيين ليست جيتوات مؤه ومحطات يُجمعون فيها ما قبل "الحل النهائي"⁶، وإنما هي الحل النهائي، والمستهدف في هذا الحل ليس الجسد في إبادة جماعية، وإنما صح التعبير الروح في إبادة ثقافية وحضارية. وفي مجمل الأحوال لم يعد مفهوم "كافياً ولا حتى الإستيطاني"، لتوصيف شمولية وعمق الحالة بعد أوصلو تحديداً.

إن مجمل هذه التوصيفات تؤدي إلى سياسة وتكشف عن أهداف إسرائيلية أكبر من حاصل جمعها. إبادة سياسية، وهدف هذه الدراسة تبيان مركباتها عبر نموذج السجون، وتفكيك عناصرها ومن ثم إعادة تركيبها عبر إطار نظري يوفر لنا الإمكانية لكشف النظام والإنسجام بيد مجمل تفاصيل السياسة الإسرائيلية. إن ما يوفر لنا مثل هذا الإطار النظري، هو ما كتبه ميشيل فوكو في كتابه –

Panopticon نظام السجن الدائري لجرمي بنتهام⁷ زيجمونت بويمن من فهم أكثر عمقاً بما يتناسب ومرحلة ما بعد الحداثة. كما أن ما كتبه نعمي كلاين بشأن عقيدة الصدمة يوفر لنا صورة واضحة بما يتصل بعمليات غسيل الدماغ الجماعية ومصدرها العلمي والنظري واستخداماتها العملية في تثبيت السياسات والنظم الإقتصادية بما يخدم المصالح الأمريكية في بعض الدول التي مرت بتجربة

وقبل أن نتركز في السجون كنموذج لعملية غسيل الدماغ أو زعزعة القيم الوطنية الجامعة التي تمثل مقولة الشعب في أوساط الأسرى الفلسطينيين، كما في أوساط المجتمع الفلسطيني بكامله –

⁶ يقصد بـ "الحل النهائي" التسمية التي أطلقها النازيون على خطة الإبادة الجماعية لليهود في أوروبا بعد تجميعهم في جيتوات أثناء الحرب العالمية الثانية.

⁷ ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة (بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990) 210.

عنوانين تعريفاً سريعاً للمشتمل كما يقدمه فوكو، وعقيدة الصدمة كما تعرضها نغمي كلاين، كأداتين أساسيتين سنستخدمهما في تحليلنا لما يحدث في السجون الإسرائيلية من أشكال تعذيب حديثة. فما هو المشتمل؟ كيف يطبق في السجون الإسرائيلية كأداة سيطرة؟ وما هي عقيدة الصدمة.. وأين تبدأ حياة الفلسطينيين وأين لم تنته

:Panopticon –

تأتي أهمية استخدام هذا النموذج من السجون فيما قدمه ميشيل فوكو من تطوير ودراسة لفهم القوة الحديثة واستخدامها في المراقبة والسيطرة. فإذا كان ما أقامته إسرائيل من معازل للفلسطينيين في الأراضي المحتلة هو عبارة عن سجون كبيرة، وما تحاول تطبيقه بحق الأسرى داخل السجون الصغيرة هو استكمال لنفس السياسة هناك، فإنه من الطبيعي والأجدي دراستها أولاً بمثل هذه الأدوات النظرية. فالمشتمل هو الصورة الهندسية البنائية لهذا النموذج من السيطرة والمراقبة التي تقوم بها إسرائيل ليس بغرض الأمن ومتطلباته فحسب، وإنما لإعادة صياغة البشر عبر السيطرة الكلية عليهم وعلى تفاصيل حياتهم ومراقبتهم، أو خلق وهم المراقبة الدائم لدى كل مواطن فلسطيني.

يصف فوكو مشتمل بنتهام على أنه عبارة عن مبنى دائري الشكل وفي الوسط برج مراقبة، وفي داخل هذا البرج نوافذ واسعة تفتح على الوجه الداخلي للحلقة.

ويقسم البناء الجانبي إلى غرف معزولة. كل واحد منها هي بطول عرض البناء، ولكل غرفة شبانكان؛ شبانك من ناحية الداخل مطابق لشبابيك البرج، وشبانك يطل على الخارج يتيح للنور أن يقطع الغرفة من جهة إلى جهة. عندها يكفي محكوم، وفقاً لطبيعة المؤسسة التي بني من أجلها هذا المبنى. وبفعل النور المعاكس يمكن من البرج رؤية الظلال الصغيرة الأسيرة الموجودة في غرف الأطراف

ح صغيرة حيث ينفرد كل ممثل وحيداً

التجهيز المكشافي (البانوبيتي يُعد؟؟؟) وحدات زمنية تسمح بالرؤية اللامنتظية وبالتعرف الآني وبالإجمال يقول ميشيل فوكو:

"إن هذا النظام يعكس مبدأ الزنزانة ووظائفها .. إلا أنه لا يحتفظ إلا بالوظيفة الأولى وتلغى الوظائف الأخرى. فالضوء القوي ونظرة المراقب تأسر أكثر مما يأسر الظل الذي يحمي في النهاية. إن الرؤية هي شرّك"⁸

إن ما ينتجه مثل هذا النظام بالدرجة الأولى، هو تفادي (أو الجماهير) ككتلة بشرية واحدة عبر تقسيمهم. حيث كل واحد محبوس في مكانه بصومته يرى من قبل الناظر وجهاً لوجه. ولكن الجدران الجانبية تمنعه من الإتصال برفاقه، إنه مرئي ولكنه لا يرى، إنه موضوع استعلام لكنه لا يشكل أبداً الإتصال، إنه جسم متلقي سلبي، لكنه أبداً ليس ذاتاً فاعلة.

⁸. المصدر نفسه، ص 210.

إن انعدام الرؤية هذه هو ضمان النظام، فلو كان الموقوفون أسرى فلا خوف من وجود مؤامرة محاولة هرب جماعية أو مشروع للمواجهة. والأثر الرئيسي للمستشرف (بانوبتيك) هو الإيحاء للمعتقلين بوجود حالة واعية ومتواصلة من الرؤية الدائمة لهم ومراقبتهم مما يؤمن وظيفية السلطة الأوتوماتيكية ويجعل الرقابة دائمة بمفاعيلها وتأثيرها على المعتقلين حتى ولو كانت متقطعة وغير دائمة في عملها الفعلي. بحيث لا يكون هناك ضرورة للسلطة تجسيدا وبصورة مكتملة كي تنفذ ممارساتها. فهذا الجهاز الهندسي الذي يمارسها إلى درجة أن المعتقلين أنفسهم يتحولون إلى حاملي هذه السلطة التي يمارسونها على أنفسهم. لقد وضع بنتهام المبدأ القائل بأن السلطة يجب أن تكون منظورة وغير ملموسة، منظورة بأن يكون ظل البرج المركزي العالي أمام ناظري الأسرى باستمرار حيث تتم مراقبته بصورة غير ملموسة، يجب أن لا يعرف أبداً إذا كانوا تحت النظر الآن ولكنهم يجب أن يكونوا على يقين بأنهم قد يصبوا تحت النظر دوماً.

عقيدة الصدمة:

في إحدى كراسات الإرشاد التي أصدرها الـ C.I.A لمحقيقه والتي تتناول وسائل لاند الأسرى أثناء التحقيق وردت الفقرة التالية: "هناك لحظة قصيرة جداً يمر بها (الأسير) يكون أثنائها متجمد الذهن وفي حالة أشبه بالشلل النفسي. هذه الحالة تحصل نتيجة تجربة كارثية أو شبه كارثية تحطم عالم (سير) وتقديره وفهمه لذاته في هـ ... محقق ذو خبرة يشخص هذا الوضع مباشرة ويعرف بأن المصدر (الأسير) جاهز للتعبئة والإمتثال أكثر مما كان عليه في الماضي.⁹ إن عقيدة الصدمة التي نعرضها هنا باختصار، تحاكي هذه التجربة تماماً وبدقة. فما يسعى التعذيب لتحقيقه بعمله على الأفراد وفي غرف التحقيق، فإن عقيدة الصدمة تسعى لتحقيقه بمقاييس جماهيرية واسعة. كتابها "عقيدة الصدمة" كتبت نعمي كلاين¹⁰ بأن من أبرز الأمثلة لفعل الصدمة على نطاق جماهيري واسع هي صدمة الحادي عشر من أيلول. والتي مثلت بالنسبة للملايين من الناس وتحديداً الأمريكيون "حطم عالمهم المألوف"، وجعلهم مفتوحين على مرحلة من فقدان الإحساس بالمكان والزمان. ن معرفة هويته الذاتية وبدا شديد الارتباط والإنكفاء. الوضع الذي استغلته إدارة بوش بمهارة عالية. حيث وجد الناس أنفسهم يعيشون بما يشبه عام الصفر. وغدوا صفحة بيضاء يمكن أن تكتب عليها الإدارة الأمريكية الكلمات والمفاهيم الجديدة التي أرادتها كـ " .. " " .. " "إسلاموفاسيزم" وغيرها¹¹.

لم تتشكل وتتطور عقيدة الصدمة في بداية الأمر كتجربة وخطأ داخل أقبية التحقيق في معهد للطب النفسي وعلى يد أكاديميين في إحدى الجامعات الأمريكية.

50 وكالة الاستخبارات الأمريكية الـ C.I.A تجارب غريبة قام بها طبيب كندي على مرضاه النفسيين في معهد " " في جامعة ميكيجين تحت إشرافه كرئيس للمعهد. وقام هذا الطبيب والذي يدعى يووان كميرون، بحجز مرضاه في حالة من التخدير والعزل التام عن محيطهم. ثم عرضهم لضربات كهربائية

⁹. نعمي كلاين، عقيدة الصدمة (تل أبيب: 2009) 27 28.

¹⁰. المصدر نفسه، ص28.

¹¹. المصدر نفسه، ص29.

وأعطاهم جرعات كبيرة ومتنوعة من المخدرات، الأمر الذي دهور حالتهم النفسية وأعادهم لفترة الرضاعة . وفي حقيقة الأمر لم يكن هذا التدهور في حالة المرض مؤث

. فهو لم يشأ معالجة مرضاه وإنما كما نشر في مقالات عديدة له خلقهم من جديد.

أمن بأنه قادر من خلال إفقاد مرضاه قدرتهم على الإحساس بالزمان والمكان، وعبر محو ذاكرتهم وما يتصوره عن أنفسهم أو محو ما تعلموه خلال حياتهم عن ذاتهم ومحيطهم وتحويلهم إلى لوح أبيض، يمكنه التغلغل لدماعهم. وأن ما يزرع السلوكيات والمفاهيم المرجوة. بكلمات أخرى لقد أراد القيام بغسل دماغ مرضاه وتحويلهم إلى لوح أبيض، يمكنه التغلغل لدماعهم. وأن يزرع السلوكيات والمفاهيم المرجوة.

أخرى لقد أراد القيام بغسل دماغ مرضاه وتحويلهم إلى أشخاص آخرين نفسياً وعقلياً.¹²

لقد أخذت نتائج هذه التجربة واستخدمت بأشكال ومجالات عدة وعلى نطاقات ومستويات مختلفة.

صياغة إرشادات وكراسات لمحقيقي الC.I.A حول كيفية إنتزاع الإعترافات من الأسرى، حيث استخدمت عقيدة الصدمة في التحقيق مع سجناء المعارضة السياسية كما تشير نعمي كلاين في دول عديدة كتشيلي في حقبة بينوشيه وفي بوليفيا ودول أمريكا اللاتينية عموماً لغاية الوصول لأسرى الحرب في العراق وأفغانستان وفي جواتينامو والسجون السرية الأمريكية المنتشرة في العالم منذ الحادي عشر من سبتم .

نتائج هذه التجربة في النظرية العسكرية التي تم صياغة الإستراتيجية الأمريكية في اجتياح العراق وفقاً لها، حيث سميت "الصدمة والترويع". بهدف ليس تحقيق الأهداف العسكرية في الإستيلاء على العراق وإنما في تحويله كمجتمع إلى ما يشبه الرضيع، كما ظهر أثر الصدمة على الأفراد في تجربة الدكتور يوان كميرون، في خنوعه واستعداديته للتعلم، أي بكلمات أخرى تحويل المجتمع العراقي إلى مجتمع بدائي وما قبل وطني، هكذا صفحة بيضاء يكتب وينقش عليها المثل الأمريكي ما يشاء. فالصدمة من شأنها أن تشل القدرة على التفكير المنطقي . لكنه ولضمان عدم ظهور أي إمكانية مستقبلية

يستعيد بها الواقع تحت الإحتلال والقدرة على التفكير بمنطق وبالتالي استعادة فكرة المقاومة فإنه يجب تحطيم كل ما هو قائم من إمكانيات ونظم ومفاهيم تحطيمًا شاملاً، وكلما كان الدمار كبير الصدمة عميقة تحول الفر

إن الصدمة كما تبين كلاين في كتابها ليست بالضرورة حرباً يُبادر إلى شنّها ضد بلد¹³ بغية صياغته من جديد كما جرى في العراق، وإنما يمكن أن تتحقق الصدمة بأشكال عديدة كالإنقلاب العسكري أو ه إرهابي، أو انهيار اقتصادي أو كارثة طبيعية كالتسونامي. فهذه الأحداث والكوارث من شأنها أن تلين مجتمعات بأكملها تماماً كما يفعل التعذيب الجسدي في غرفة التحقيق بالأسرى. فمثلما الأسير الخائف يكون مستعداً أن يسلم أسماء رفاقه أو يتنكر لمعتقداته في لحظات يكون فاقد القدرة على التفكير جراء الصدمة، هكذا تكون المجتمعات أيضاً. فالمجتمعات المصابة بصدمة ميالة أكثر للتنازل عن مبادئها التي في ظروف أخرى ما كانت لتتنازل عنها.

¹². D. Ewen Cameron, J.G. Lohrenz and K. A. Handcock, "The Depatterning Treatment of Schizophrenia," comprehensive psychiatry 3, no.2 (1962):67

لقد آمن أصحاب عقيدة الصدمة بأن بمقدورهم صياغة مجتمعات كما الأفراد وفقاً لمصالحهم وأهدافهم، وقد استخدمت نظريتهم في تعميم وفرض نظم اقتصاديات السوق الحرّ في دول عديدة. ن كان في دول أمريكا اللاتينية في أعوام السبعينيات أو في روسيا بعد انهيار الإتحاد السوفييتي بالإضافة إلى فرضه على جنوب أفريقيا بعد إلغاء نظام التمييز العنصري، ومحاولة فرض اقتصاديات السوق باريس عقب " حرب لبنان الثانية صيف 2006، وقد استطاعت دول أمريكا اللاتينية الخروج من الصدمة وآثارها الاقتصادية بعد 27 تقريباً، كما استطاع لبنان ومقاومته عبر إعادة الإعمار من رفض شروط الدول الغربية والبنك الدولي وإعمارها بقواه الذاتية. وهكذا فإن الصدمة ليست قدرًا محتومًا وهناك إمكانية دومًا الخروج منها والإفلات من براثن ما يخطط للبلدان التي تقع تحت وطأة الصدمة إن كانت حربًا أو كارثة طبيعية¹⁴.

الإضراب عن الطعام كصدمة ثانية.. وصهر الوعي للأسرى

عندما قصفت اسرائيل با تيا اتها المتكررة المدن الفلسطينية والتجمعات السكانية بطائرات الـ F16 والأباتشي، واقتحمت بدباباتها الأحياء المكتظة بالسكان ودخلت كل زقاق وكل زاروب في نابلس وجنين ورام الله، وهدمت بجرافاتها الضخمة الـ D9 البيوت على أهلها. فإن ذلك قطعًا لم يكن بهدف عات صغيرة من المقاتلين الذين أكثرما في تسليحهم وأعظمه بندقية الكلاشين.. وحيث لا يملكون أي خبرة أو تدريب عسكري يذكر.

إن الأمن، وتحديداً أمن جنودها المدججين والمحصنين خلف ترسانة من الأسلحة والحديد كان سبباً مباشراً وميدانياً قد يفسر مثل هذا الإستخدام المكثف للنيران والعنف والدمار. لكنه لا يفسر الهدف الرئيسي الذي تريد إسرائيل تحقيقه من خلال هذا الدمار الذي كان يستمر في أحيان كثيرة بعد انتهاء المعارك. إن الهدف الرئيسي هو إحداث حالة من الرعب الشديد في أوساط المواطنين الفلسطينيين يصل لاستخلاص مفاده أن إسرائيل بقيادتها العسكرية والسياسية فقدت أعصابها وجنّ جنونها، وأنه لم يعد هناك قانون أو محرم من المحرمات في الحرب قادر على ضبطها. وقد رافق ذلك تصريحات لمسؤولين اسرائيليين تعزز مثل هذا الإ . وقد أعطيت التصريحات صد إعلامياً مقصوداً لتحقيق هذا الغرض. وانتشرت في المقابل تصريحات ومواقف لقادة ومحللين سياسيين فلسطينيين تطالب الأجنحة العسكرية التوقف عن إعطاء الذرائع والمبررات لشارون وحكومته في الإستمرار بالقتل والتدمير العشوائي. واستندت هذه المواقف والتحليلات على فرضيتين الأولى أن هذه الحكومة الإسرائيلية ت فلا يجب "هذا المجنون شارون مراده". وكأننا لا نتحدث عن دولة لها مصالح ويضبطها منطق أهدافها. " كما ينضح كان استراتيجية تستند إلى الكثير من حسد .. والفرضية الثانية ه أن الهدف الاسرائيلي من التدمير، وقف العمليات المسلح . وقد أعلنت هذه الأجنحة أكثر من مرة وقف العمليات وإعطاء فرصة للحوار لكنها قوبلت اسرائيلياً بالإغتيالات و مزيد .

¹⁴. المصدر نفسه، ص 538 544.

أبرزها الهدوء الذي أعلن عنه قبل اغتيال رائد الكرمي قائد كتائب شهداء الأقصى في مدينة طولكرم. الذي يؤكد أن العمليات العسكرية التي ينفذها الجيش الإسرائيلي لا علاقة لها بوقف أو عدم وقف العمليات من . فقد بدأت إسرائيل حربها بهذه الذريعة، لكن استمرار عدوانها لا يتوقف بانتفاء العمل

المسلح الفلسطيني، أو كما كانت تسمية القضاء على " بنية التحتية للإرهاب". لقد أرادت إسرائيل كما كان يصرح قادتتها صباح مساء "جباية ثمن باهظ" ليشكل حالة من الصدمة الشديدة للفلسطينيين يؤسس عليها لاستثمارها في صياغة وعي الفلسطيني "البنى التحتية المعنوية" للمقاومة، يمكن لسقف شارون وحكومته في رؤيتهم للحل التعايش معه لا سيما وأن إسرائيل بيمينها "يسارها" اعتبرت أن الخلل الأساسي لدى الفلسطينيين هو ارتفاع سقف آمالهم وطموحاتهم من تخفيض هذا السقف الذي تجرأ على قوة الردع لجيشها. الأمر الذي مردّه باعتقاد شارون، اتفاقيات أوسلو التي عارضها منذ البداية.

نت الصدمة في تجارب الدكتور كميروون لم تكن بهدف علاج مرضاه، وإنما خلقهم من جديد عبر مسح ذاكرتهم وغرس ذاكرة جديدة بالعودة مراراً وتكراراً على رسائل صوتية مسجلة يبتثها لهم حيث تحمل مفاهيم وسلوكيات جديدة ينوي غرسها بهم¹⁵ فإن الصدمة التي أرادت إسرائيل إحداثها في المواطن الفلسطيني هي أيضاً لم يكن هدفها الأساسي إنهاء عمل الفصائل الفلسطينية المسلحة بجعل فكرتها . وإنما محو مجموعة المفاهيم والقيم التي تشكل البنية التحتية المعنوية للمقاومة. وأولها مقولة الشعب والقيم الوطنية الحامية للنضال والمناضلين، واستبدالها بقيم ما قبل وطنية يسهل عليها التعامل معها. بكلمات أخرى إسرائيل أرادت للدمار والقتل إحداث صدمة من شأنها أن تفقد المجتمع والنخب الفلسطينية القدرة على التفكير المنطقي والمتوازن بما يسهل عليها عملية غسل الدماغ الدماغي دون مقاومة. ل أن تحقق استدخال مفاهيم وقيم تفرغ أطرها القائمة من محتواها المقاوم.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف لم تكف إسرائيل بالدمار والقتل، وإنما تبعتها بمجموعة من الخطوات والإجراءات بدءاً بتقطيع الأراضي المحتلة إلى معازل وانتهاءً بموافقتها، إن لم يكن بدفعها، على خطة يتون. هذا تماماً يتطابق ومراحل تجربة الصدمة على المرض في معهد " في جامعة ميكيجن.

" عقول مرضاه بكافة أنواع المخدرات والضربات الكهربائية، قام الدكتور كميروون بعزلهم عن العالم الخارجي بزنازين انفرادية، وعطل حواسهم بتغطية آذانهم وعيونهم وأكفهم حتى يفقدوا الإحساس¹⁶. ليصبحوا غير قادرين على تحديد هويتهم الذاتية. وهذا بالضبط الغرض الذي تؤديه عملية تقطيع الأراضي المحتلة إلى معازل في إطار خطة صهر الوعي. فالفلسطيني غير قادر بهذه الحالة من رؤية ومتابعة المشهد الوطني بكامله، وهو غارق في هموم وتفاصيل الجزء الذي يعيشه من الوطن فيكيفّ

ير كمجتمع متكامل. " الصوتية المسجلة"¹⁷ أو عملية غرس المافهي الجديدة. وهذا ما تؤديه خطة دايتون. فخطورة ما في هذه الخطة باعتقادنا ليس بعدها الأمني، وإنما القيم التي يربى عليها مئات الشباب ممن يتم تجنيدهم في إطار الأجهزة الأمنية. وممن يفترض أن يكونوا عماد أي حركة تحرر في نضالها ضد المحتل.

D. Ewen Cameron, "psychic Driving", American Journal of psychiatry 112, No.7 (1956): 502-509. 15

¹⁶. نعمي كلاين، عقيدة الصدمة (تل أبيب: 2009) 50.

¹⁷. المصدر نفسه، ص 45.

د رافق هذه المرحلة بالذات نقاش اسرائيلي بشأن ضرورة خلق قيادة بديلة و " يك فلسطيني" يمكن التوصل معه الأمر الذي لوحظ أيضاً داخل السجون في السعي لتشكيل قيادة بديلة

القيادية للفصائل وعزلهم عن باقي الأسرى في قسمين. ورغم أن العزل كأسلوب عقابي لم يكن بالجديد لكنه في هذه الحالة لم يكن عزلاً إنفرادياً كما في الماضي، باستثناء حالات قليلة، وإنما شمل أعداد كبيرة من الأسرى ممن يشكلون الصف الأول والثا وهذا كي لا يحدد العزل بزمن كما يقتضي العزل الإنفرادي من الناحية القانونية. فهو بالأساس لا يستهدف الأسرى كعقاب في هذه الحالة وإنما يستهدف خلق فراغ قيادي يتيح إفراز قيادة جديدة، والتدخل في العمليات الجارية بين الأسرى.

مختبراً يتم به اختبار السياسات الإسرائيلية فإن الإجراءات في الأراضي المحتلة في بعض الأحيان تتطابق تطابقاً تاماً مع الإجراءات في السجون.

لقد عزلت القيادة الفلسطينية المؤثرة والرافضة للإملاءات الإسرائيلية في المدن الفلسطينية ومنعت من التنقل، بل وبعضها عزل عزلاً ما يوازي العزل الإنفرادي في ا .

جنايات الكبيرة إلى معازل، بعد إحداث الصدمة، فقد أزاها في السجون خطوة شبيهة بعد الإضراب عن 2004 عملية فصل للأسرى في أقسام معزولة بعد أن أحدثت الصدمة المطلوبة من خلال طعام ونتائج ليتم الإستفراد في كل قسم بمعزل عن جسم الحركة الأسيرة لتطبيق ما يشبه خطة دايتون ويوازيها قيمياً في الأسر، وذلك كله في إطار خطة صهر الوعي الذي دوماً يشكل الهدف العام والرئيسي لمجمل الإجراءات داخل وخارج السجون.

لم تعد السجون الإسرائيلية والأسرى الفلسطينيين، أو كما اعتدنا تسميتهم "الحركة الوطنية الأسيرة" كانوا في الماضي قبل تسلّم مدير السجون يعقوف جنوت منصبه. حيث يصف قداماء الأسرى الحال اليوم بأنه "عال مادياً" " معنوياً" . وهذا الوصف ليس مرده النوستالجيا التي قد تعيشها الأجيال ر السنّ منهم، حنيناً لماضٍ . فقوم الأسرى ليسوا استثناء لهذه القاعدة، قاعدة الحنين إلى الماضي، حتى بما يتصل بحياة الأسر خصوصاً عندما يجري الحديث عن أسرى أمضوا ربع قرن أو ما يزيد من عمرهم في السجن، وإنما يعبر هذا الوصف عما جرى من متغيرات عالية نسبياً بإنجازاتها المادية، لكنها منحطة بما تتركه من أثر معنوي وقيمي سلبي. لقد صور أحد الأسرى بعفوية وبساطة بالغة الحال القميّة للأسرى رغم البهوّة المادية حيث قال: "كنا في الماضي مع بعض واليوم نحن على بعض".

من خلاله يمكن تلخيص مجمل المشهد الفلسطيني. التناقض بين شروط الياة الجيدة نسبياً وبين إحساس الأسير بحالة من الإنحطاط المعنوي يعود بالأساس إلى عدم قدرة الأسرى على تعريف ما يواجهون وما يتعرضون له من قمع، فهو لا يأتيهم بأشكاله الفجة المباشرة والحسيّة، ومن ثم عدم قدرتهم على تحديد سبل ووسائل مواجهته.

وقبل أن نقف على ما اتخذته اسرائيل من إجراءات داخل السجون وتحليلها للوقوف على طبيعة التعذيب الحديث ووسائله وسبل مواجهته، فإنه لا بد من عرض سريع لبعض المقدمات التي كان من الضروري توفيرها. حتى تجعل حكومة شارون خطة صهر وعي الأسرى خطة واقعية التطبيق، بل وشاملة كما سيبيّن لنا لاحقاً، وأن تكون إجراءاتها نافذة لغاية أدق التفاصيل في حياة الأسير وبزمن قياسي، وأن تنسجم بالتالي مع الخطة العامة لصهر الوعي الفلسطيني التي تشمل مهام أخرى لأجهزة الدولة العبرية، كما سبق ولخصناها في نقاط ثلاث.. فقد اتخذت الإجراءات التالية:

: تم تعيين رجل عنصري مثل يعقوف جنوت على رأس الهرم القيادي لإدارة السجون. عُين جنوت لمنصبه هذا في أواسط عام 2003، وتلقى دعماً مباشراً من رئيس الوزراء أريئيل شارون، الذي على علاقة شخصية وقديمة به منذ أن كان قائده في كتيبة المظليين 101، وقد ذللت هذه العلاقة القديمة مع شارون كل العقبات البيروقراطية والإدارية التي من الممكن أن تعيق إعادة بناء وهيكل إدارة السجون بما ينسجم ومهمتها الجديدة التي تتجاوز مهمة إحتجاز الأسرى. حيث منحه شارون مطلق التصرف في تحديد وتطبيق سياسته. هذا بالإضافة إلى زيادة الميزانية التي أتاحت له تجهيز السجون القديمة بتقنيات ونظم حديثاً تتيح له ولشروطه إحكام السيطرة على تفاصيل حياة الأسرى، وبناء سجون جديدة تستوعب آلاف الأسرى الجدد ممن يعقلهم الجيش الإسرائيلي أو حتى يخطط لاعتقالهم في إطار الخطة العامة لعملية صهر الوعي.

ثانياً: يد السياسة في إدارة السجون والإنضباط لها من أصغر شرطي لغاية أعلى رتبة ومسؤول، وأصبح واضحاً تماماً بأن هناك "مايسترو" . فلم يعد هناك تفاوت في تطبيق القرارات بين سجن وآخر، وأن وجد تفاوت فهذا بقرار وضمن خطة وتوجه، ولم يعد هناك مكان للعفوية والإجتهاد، فالهامش الذي كان متاحاً لمدير المنطقة أو السجن ضاق تماماً.

: عمل جنوت منذ اللحظة الأولى لتسلمه منصبه على افتعال المواجهة مع الأسرى في أكثر من موقع أولها كان سجن عسقلان الذي تم قمعه بالغاز والهراوات، وقد أسفرت هذه المواجهة عن عدد كبير من جرحى تم نقل عدد منهم للعلاج في مستشفيات خارجية. كما عقب هذه الواقعة إجراءات نعتقد بأنها وبالمنظر إلى الوراء، كانت خطوة مخططاً لها مسبقاً وليس مجرد حادثة تهدف إلى رفع الأسرى لمربع الإضراب المفتوح عن الطعام موضوعاً وتوقيئاً. وقد تبين لاحقاً بأن جنوت هياً كل الشروط اللازمة حتى يشكل الإضراب عن الطعام نقطة تحول في حياة الأسرى يتم استغلالها بما سيعقبها من سياسة، أو بكلمات أخرى أراد للإضراب أن يتحول إلى صدمة ثانية (بعد صدمة الإجتياحات والإعتقالات) وقوية، تعقبها عملية صياغة وغسيل دماغ.

: تطبيق سياسة التفتيش العاري للأسرى على نطاق واسع، واستخدم . كما استخدمت الكلاب في التفتيش على أجساد الأسرى وأمتعتهم بهدف الإهانة والمسّ بمشاعرهم الدينية. حيث يدركون بأن الكلاب تمثل في الثقافة الإسلامية نجاسة تستوجب التطهر منها، خدمت الكلاب للترويع أثناء نقل الأسرى بين السجون. وقد تركت هذه السياسة آثار نفسية ومعنوية بالغة الشدة على الأسرى مثلت أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت بهم نحو مربع الإضراب المفتوح عن الطعام لوقف الإهانة اليومية وإمتهان كرامتهم¹⁸.

: تم استكمال تركيب الزجاج العازل في غرف الزيارات. وذلك لضمان الفصل بين الأسير وأسرته. فلم يعد بمقدور الأسير أن يلامس أسرته زوجته وأطفاله. واقتصرت العلاقة بهم على حاسة السمع¹⁹. الأهم ضمان وقف الصلة بالأهل قبل الإضراب تحديداً، حيث الزجاج سيؤدي بالأسرى لاتخاذ موقف الإمتناع عن الزيارة. وهذا للإستفراد بهم بعزلهم عن أهم دائرة

¹⁸ . التفتيش العاري والمسّ بالمشاعر الدينية أسلوب تكرر في جوانتانامو وأبو غريب، وتحديداً استخدام الكلاب. أنظر نعمي كلاين، نفس .136

¹⁹ . هذه المرحلة توازي مرحلة تطويق الحواس في تجارب الصدمة بعد عزل المرض. هدفها الإستفراد بالأسرى بعملية الصياغة من جديد وإضعاف مقاومتها.

اجتماعية تشكل الداعم النفسي والمعنوي، فالزيارة بالنسبة للأسير ولقاها بأسرته يُعيد له توازنه النفسي وتقديره الذاتي وقدرته على مواصلة الصمود.

لم يسبق في تاريخ السجون الإسرائيلي

المفتوح عن الطعام كما فعلت خلال الأشهر التي سبقت الإضراب في أغسطس/ 2004. بكل إجراءاتها أنفة الذكر، وأكملت استعداداتها لمواجهة الإضراب. وقد حاولت قيادة الحركة الوطنية الأسيرة الإنحاء لتمرير هذه الهجمة الشرسة، خاصة وأن غالبية الأسرى حديثاً خلال الإستجابة والتعاطي مع السياسة الجديدة لإدارة السجون، مع حفظ ماء الوجه مقابل تخفيف إجراءات الضغط والقمع التي تستهدف الكرامة الإنسانية والمشاعر الدينية. ديدة بهذا المعنى إلا أن مدير السجون قابلها بالرفض القاطع. حتى بدأ الإضراب عن الطعام نهائياً هو المخرج الوحيد أمام

لقد كان جنود قد أعد العدة خلال عام كامل وجهاز كل الإمكانيات لكسر الإضراب بوسائل حديثة تترك الأسرى في حالة من الصدمة الشديدة، أو على الأقل إمكانيات لم تعهد مثلها الحركة الوطنية الأسيرة في تها الكثيرة من قبل. إن أهم ما في الوسائل التي أعدت كان اعتمادها على نظريات حديثة في علم النفس، وعلم نفس الجماعات ونظريات في الحرب النفسية والإعلامية والتضليل تماماً كما لو كانوا يعدون خطة يواجهون بها جيشاً جراراً وليس أسرى مكبلين وكل ما يملكونه من سلاح هو أحشا هم الخاوية . وقد جند لهذا الغرض مهنيون في هذه المجالات من خارج المؤسسة، قاموا بتفعيل الخطة التفصيلي لما يجب أن يؤديه آخر شرطي مناوب في أقسام السجن. ولم يتركوا أي قضية أو سلوك مهما كان صغيراً وثنائياً للصدفة أو الإجتهد الشخصي لأحد، لا لشرطي ولا حتى لمدير السجن. لقد تبين لنا بأننا أمام منظومة من الإجراءات القمعية مخيفة في منطقيتها تمتد من سجن جلبوع شمالاً حتى نفحة جنوباً. لقد رافق الإجراءات التي اتخذتها إدارة السجون ضد الأسرى إضراب عن الطعام دعم سياسي أعلى المستويات في الحكومة الإسرائيلية. وقد صرح الوزير المسؤول عن السجن – وزير الأمن الداخلي – تساحي هنجبي، بأن الأسرى المضربين عن الطعام بمقدورهم الموت فهو لا ينوي الإستجابة لمطالبهم²⁰. وقد شكلت هذه الإجراءات، التي لا تدل منفردة على وجود تعذيب فوق العادة وغير محتمل، قوة ضاغطة نفسياً وعصبياً، رغم أن المشهد الأبرز هو تحد وصمود، حيث ومن جملة هذه الإجراءات نذكر التالي:

1. إبقاء النور مشتعل في الغرف على مدار ساعات الليل والنهار بهدف استنزاف أعصاب الأسرى بمنعهم

2. درة كل وسيلة بحوزة الأسرى مهما كانت تافهة وبسيطة، ولكنها قد تريحهم جسدياً كالمخدرات ... أو العبوات البلاستيكية والكاسات التي قد يتم استخدامها لملء الماء ووضعها بجانب الأسرة حتى لا يضطر الأسير السير نحو الحنفية كي يشرب ولمنع أي مظهر تضامني بين الأسرى كتوزيع الماء هذه العبوات والكاسات على الأسرى الذين يستصعبون النهوض للشرب بمفردهم بعد أن أرهقت أجسادهم

²⁰. الخبر نشر في الصحف العبرية – اسم الصحيفة، التاريخ، الصفحة

3. مصادرة ملح الطعام من الأسرى، حيث اعتادوا تناوله أثناء الإضراب عن الطعام حتى الأضرار الصحية الناجمة عن الجوع إلى عاهة أو خلل صحي مستديم. (غير مسبوق) قضائياً من محكمة العدل العليا يجيز مصادرة الملح. كما صادرت السجائر من الأسرى، وهذا الأسلوب استخدم لأول مرة كأداة ضغط ضد الأسرى المضربين عن الطعام.

4. عرفهم بحجة التفتيش عن " " أنه تم تفرغ الغرف من كل محتوياتها وأبقي فيها فرشاة لكل أسير. كما أجريت تنقلات للأسرى بين الغرف . مرتين في اليوم الواحد أحياناً. فبالإضافة للإرهاق الجسدي الذي يحدثه التنقل للأسير أثناء الإضراب، كان الهدف فكفكة دوائر المعارف والأصدقاء التي تشكلت على مدار سنوات .. وبالتالي إضعاف الدائرة المعنوية المباشرة الداعمة نفسياً لضمود الأسير.

5. إسماع الأسرى نداءات عبر مكبرات الصوت وتوزيع نشرات تهدف إلى إضعاف قناعة الأسير بخطوة الإضراب وقيادته، كأن يبث بأن الإضراب هو خطوة دفعت بها حماس خدمة لأجندات سياسية خاصة وليس بهدف تحقيق أي مطلب من مطالب الإضراب.. و أن القائد الفتاوي فلان قد كسر إضرابه وتناول الطعام..

6. وبعض السجناء الجنائين يومياً في باحة السجن أعين الأسرى المضربين وبصورة استعراضية. وقد خصصت غرفة في كل قسم لإيواء سجناء جنائين مهمتهم الطبخ وتناول الطعام وإسماع الأسرى موسيقى صاخبة ومزعجة ليل نهار.

7. وأثناء نقل الأسرى بين السجون، أو في الحالات التي فيها إحالة الأسير المضرب عن الطعام على تدهور حالته الصحية لمستشفى أو عيادة السجن استخدم العنف وجهاز الصدمة الكهربائية لديهم على السير بسرعة. فهذا الجهاز يستخدم في الأصل لحث الأبقار على السير. كما استخدم جهاز كشف - الميجنوميتر في تفتيش الأسرى وهم عراة تماماً بحجة البحث عن أدوات حادة أجسادهم!!

8. منع المحامين من زيارة الأسرى والتواصل معهم أثناء الإضراب وذلك لإحكام السيطرة والعزل التام عن العالم الخارجي، ومنع تسرب أي خير عن حملات التضامن والإعتصامات الجماهيرية دعماً للإضراب. حتى لا تشكل هذه الأخبار داعماً معنوياً معززاً لضمودهم.

لقد واءمت إدارة السجون إجراءاتها وعدلتها أثناء الإضراب بما يتناسب والتطورات في كل سجن بـ . فالخطوات كانت محسوبة ولم تكن مجرد تنفيس غضب أو سادية تمارس على

الأسرى لمجرد تعذيبهم وإلحاق الأذى بهم. راءاتها هذه كما تبين لاحقاً لخبرات عالمية كخبرة المخابرات الأمريكية ورببياتها من الأنظمة الحاكمة في دول أمريكا اللاتينية في سنوات السبعينيات إن كان ذلك بطبيعة الوسائل المستخدمة لقمع الإضراب أو الأهداف الرئيسية التي يستهدفها هذا القمع. حيث يروي الأسرى، الذين اعتقلوا وعذبوا في سجون الأرجنتين على يد الطغمة العسكرية الحاكمة في شهاداتهم أمام "لجان الحقيقة" بأنهم واجهوا جهازاً كان كل جهده وهدفه منصب ليس على انتزاع المعلومات منهم فحسب، وإنما على إرغامهم على خيانة مبدأ أساسي اكتشف محققاً هم بأنه يشكل جوهرية في قناعاتهم اليسارية، وناظم لمجمل سلوكهم السياسي وهو مبدأ التضامن والشعور مع ف معذبيهم على أهمية هذا المبدأ لدى الأسرى، وضعوه هدفاً لهم لاستئصاله عبر العلاج

. ففي الظاهر كان هدف التحقيق الحصول على معلومات كانت في الغالب بحوزة الأجهزة الأمنية، لكنهم كانوا معنيين بأن يقوم الأسير بخيانة رفاقه فهم معنيون بفعل الخيانة ذاته للقضاء على التضامن كمبدأ²¹ وفي السجون السرية أو تلك التي تدار أمريكياً بشكل مباشر مثل جونتنامو وأبو غريب كسر الأسرى وتحطيم شخصيتهم وتكوينهم النفسي عبر استخدام الإسلام والقناعات الدينية ضد الأسرى المسلمين. ظهر في شهادات الأسرى الذين احتجزوا في هذه السجون مراراً وتكراراً شكلان أساسيين من التعذيب؛ التعرية.. ومضايقة الأسرى أثناء تأديتهم شعائرهم الدينية²².

التعري في حالة الأسرى الفلسطينيين وشكل سبباً رئيسياً لخوضهم خطوة الإضراب. لكن مجمل الإجراءات التي اتخذت بغية قمع الأسرى استهدفت تماماً حالة التضامن وقيم العمل الوطني المشترك. هذا التضامن الذي تبلور على مدار عقود من النضال الفلسطيني الأسير كان الحلقة الأهم التي تجمعت عليها مطارق السجان لفكها، ليس من أجل إنهاء الإضراب عن الطعام فحسب، بل ولإنهاء فكرة العمل الجماعي في أي خطوة إضراب مستقبلية²³. من مجموعة أفراد وفصائل تختلف عقائدياً وأيديولوجياً لقوة لم يكن بمقدور السجان، رغم ظروف الأسر، الحيلولة دون تضامنها وتواصلها مع نضال شعبيها ونضال الشعوب وحركات التحرر.

لقد كان من المستحيل تماماً تطبيق السياسة الجديدة التي اتبعتها إدارة السجون بعد الإضراب مباشرة، دون أن يشكل الإضراب ونتائجه صدمة شديدة يصبح من خلالها الأسرى أكثر سهولة على الصيغة والإمتثال لما كان يعد لهم في إطار خطة صهر الوعي، فقد كان حاضراً في أذهان الأسرى ووعيهم الجماعي مجموعة من المفاهيم التي تحمل بمجملها دلالات العم الجماعي، وتمثل قيم النضال الوطني الأسير المشترك. لهذا كان لا بد من ضربة تهز مجموعة المفاهيم والقيم المشتركة للأسرى لتقضي على لجانهم وأطهرم التمثيلية بصيغتها ومحنواها الوطني القائم ليكفوا عن كونهم جسم أو كياناً وطنياً أسير .

لقد فشل الإضراب عن الطعام في تحقيق مطابه، ولكن الفشل الأهم والذي ستنقى تداعياته على حياة الأسرى لسنوات، هو نجاح إدارة السجون في فكفكة السجون والأقسام المضربة الواحد ت إضرابها ليس بصورة منظمة وقرار قيادي واحد وبخطوة جماعية وبالت

. فمدير السجون مدرگا تماماً بصفته

عسكرياً سابقاً، بأنه حتى تضمن بأن لا تعود قوات عدوك لساحة القتال مجدداً بعد انسحابها بمدة قصيرة، لا يكفي أن تحتل مواقعها وتدحرها إلى الخلف بل يجب أن يبدو تراجعها وهزيمتها أبعد ما يمكن عن الإنسحاب المنظم أو وفقاً لقرار قيادي مركزي، وفعلاً فقد كان وقف الإضراب أشبه بالفوضى منها إلى الإنسحاب المنظم، ضمن من خلاله جنود الإنهيار الكلي للهرمية القيادية لسنوات ومعها منظومة من القيم التي تحوّل الجنود من أفراد إلى وحدات قتالية. وهكذا أصبح الأسرى مهينين أكثر للتشكيل وتطبيق خطة صهر الوعي.

²¹. نعمي كلاين، عقيدة الصدمة (تل أبيب، الأندلس، 2009) ص135.

²². المصدر نفسه، ص136. ظهرت أثناء الإضراب عن الطعام إساءات لمشاعر الأسرى الدينية كتمزيق المصاحف، رميها في الأرض أو المراحيض لكنها لم تشكل ظاهرة وبقيت حالات فردية.

²³. كرر يعقوف جنود مدير السجون، قبل الإضراب وأثناءه للأسرى بأنه سيعمل على أن يمثل الإضراب للأ يخوضونه، وأنه لن يكون هناك إضرابات بعده "وعليكم نسيانه كأسلوب نهائياً".

الوفرة المادية كأداة تعذيب:

صخرة نضالهم الج سرائيل عبر إجراءاتها في الأراضي المحتلة المشروع الوطني الفلسطيني. ففيما الأقسام الخاصة بأسرى نابلس مثلاً أصبحت تطالب بزيادة عدد الزائرين وزمن الزيارة. فإن نضال أهالي نابلس تحول أيضاً مطبياً خاصاً بطروف حياتهم كفتح الحواجز أو غيرها من المط . إن معاناة الفلسطيني، كما هي معاناة الأسير الفلسطيني، قد فُسمت لمشاهد يرى منها الفرد وينشغل بها مواطنًا أو أسير ، بمقاطع خاصة بمنطقته الجغرافية. ولا يتاح له رؤية أو الإنشغال بمجمل المشهد إن كان ذلك عبر الإجراءات المباشرة التي تستهدف تقسيم مجال الرؤيا السيطرة على زمن الناس ليقعوا تحت وطأة الأعباء اليومية والقهر الدائم الذي يمارسه عليهم الإحتلال. ولتحقيق المراقبة والسيطرة على الأسرى بشكل شامل بعد الإضراب عن الطعام في إطار تطبيق خطة صهر الوعي قامت إدارة السجون الإسرائيلية باستخدام نموذج التجهيز المكشافي البانويبي عبر مجموعة من الإجراءات، مستغلة حالة التذمر والإحباط الشديد من الإضراب ونتائجه بهدف تكريسها وتوسيعها وتعميق خيبة الأمل التي سادت أوساط الأسرى. لكن الأهم هو استثمار حالة الإحباط الشديد من القيادة وانهيار البنى التنظيمية الوطنية والفصائلية الخاصة، وتوظيف ما أصاب فكرة التحرك والنضال الجماعي من زعزعة واهتزاز قويين في الإجهاز على القيم الوطنية الجامعة. وقد كان من أبرز هذه الإجراءات التي اتخذت عقب الإضراب هي:

1. فصل أو تعميق الفصل بين الأقسام داخل السجن الواحد وعزلها عن بعضها البعض وفقًا لتقسيمات واعتبارات جغرافية. بعد أن تم تقسيم السجون إلى مجموعات وفقًا لمناطق جغرافية أكبر. هكذا مثلاً أصبح " " سجنًا يضم أسرى شمال الضفة من نابلس حتى جنين هذا بالإضافة قسمين يحتجز بهما الأسرى من حملة بطاقة الهوية الإسرائيلية، قسم غالبيتهم من القدس وآخر من فلسطيني الـ48. ويقدم هذا التقسيم دومًا على أنه خدمة للأسرى، واستجابة لمطالب لجان حقوق الإنسان التي تطالب إدارة السجون بأن يحتجز الأسرى في سجون قريبة لأماكن سكن أسرهم وذلك للتخفيف عليها في الوصول للزيارة. وهذا الإدعاء الذي يبدو منسجمًا مع مطلب الأسرى وحاجاتهم يخفي الهدف الحقيقي، فالأسرى ليسوا موزعين عشوائيًا على أقسام السجن، وإنما هم مقسمون على معازل وأقسام جغرافية أصغر داخل . مثلاً قسم خاص بأسرى مدينة جنين لا يقطنه أسرى من مخيم جنين فل هؤلاء قسمهم. آخر لقباطيا وقراها وآخر لطولكرم وقسم لقلقيلية وقراها.. وهكذا تتطابق هذه التقسيمات والمعازل داخل السجن الواحد مع المعازل التي أقامت إسرائيل في الأراضي المحتلة بحيث يصبح التقسيم الجغرافي إلى انتماء جغرافي يستبدل الإنتماء الوطني، مما يجعل عملية السيطرة أسهل وأكثر شمولاً، هذا خلال ضباط الإستخبارات على خلق التناقضات وتأجيج الخلافات الوهمية بين هذه " البلدية والجغرافية.

2.

ي . ومهمتها الإجتماع مع المسؤولين في السجن المتواجدين في السجن و أو ضباط إدارة السجون لطرح قضايا ومطالب الأسرى المشتركة. وقد تحقق العمل بهذا الفهم وثبت بعد نضالات وتضحيات قدمتها الحركة الوطنية الأسيرة، واستبدلت هذه الآلية من العمل بفرز ناطق باسم كل

وهو عملياً ناطق باسم منطقة حيث يمثل قسم لمنطقة جغرافية. ويُحدد هذا المندوب من قبل إدارة السجن وبموافقتها بعد أن يسمى الأسرى إسمين أو ثلاث لتصادق إدارة السجن على واحد منهم. ويتم الاجتماع بمندوبي الأقسام ليس جماعياً وإنما كل مندوب على انفراد. ويحق للمندوق طرح قضايا قسمة – طقته فقط. وهي في الغالب مطالب فردية وفي نفس الآن يقوم هذا المندوب بنقل تحذيرات وتوجيهات . وبهذا فرغت إدارة السجن التمثيل الإعتقالي للأسرى من محتواه الوطني

الحقيقي. بحيث أصبح أقرب إلى " "24 منه لممثل أسرى. وهذا الحال بعكس لجنة

مهتها تقديم مطالب جماعية لأسرى، بل وتقديم مطاب عامة تخص كل الحركة الأسيرة في كافة المواقع. 3. إنزال العقوبات الشديدة، فردية أو جماعية، بحق الأسرى في حال اتخذوا خطوات نضالية حتى وإن كانت رمزية وبسيطة، كأن يعيدوا وجبة طعام احتجاجاً على أمر ما يبدو ح ن بشأنه حتى لا تعود الثقة لفكرة النضال الجماعي، أو يحتل مبدأ التضامن مكانته كما كان قبل

4. منع أي مظهر جماعي مثلاً التعزية في حالة الوفاة.. استقبال أسير جديد.. أو توديع أسير في حالة استمرار إدارة السجن السماح للأسرى بتأدية صلاة الجمعة كجزء من الشعائر الدينية وكمظهر جماعي، إلا أنها لا تسمح بأن تتعدى الخطبة الحلال والحرام.

حتى وإن كان المطروح معتدلاً، كأن تتناول الأوضاع الفلسطينية أو ذكر فلسطين، فهذا إبداء رأي وحرية

5. إنزال العقوبات الشديدة بحوزتهم صور لقادة فلسطينيين أو شهداء، وصلت هذه

الزنازين والحرمان من الزيارات وغرامات مالية، وفي غالب الأحيان تكون الصور مأخوذة عن صحيفة عبرية وقد تكون صورة الشهيد حوزة صديقة أو قريبة أو حتى شقيقة. ومن الجدير ذكره بأن هذه الصور ليست معلقة في غرف الأسرى أو معروضة للمشاهدة وإنما مطوية ومخفية في أل الخاص بالأسير، الأمر الذي يؤكد بأن ملاحظتها ليس نابغاً من ملاحقة إبداء الرأي أو منعاً للتحريض فقط، ير. فملاحقة صورة قائد مثل صورة أبو عمار مطوية في ألبوم له علاقة بما

يحسّ به الأسير أو يعتقد بشأن ما يمثله هذا القائد من انتماء لفكرة نضالية أو شعب أو قيم وطنية ما.

6. لقد راكمت الحركة الوطنية الأسيرة على مدار عقود من الإعتقال تقاليد تنظيمية تستند إليها في التعارضات الداخلية، وقيادتها للعمل الوطني في مواجهة إدارة السجن وسياساتها، كما راكمت تقاليد تعتمد القيادة الجماعية وعززت مبدأ الترشيح والانتخابات داخل كل فصيل، وسعت دوماً لتعزيز الروح الديمقراطية وقد تبلورت هذه التوجهات بلوائح عامة لتنظيم علاقات الفصائل ولوائح خاصة لكل فصيل تستند إلى مبادئ تدوير القيادة وتجديدها وتقديم التقارير الدورية لضمان الشفافية أمام القاعدة. ولمواجهة هذا الواقع الذي قد يفرز آليات تعيد ترميم ما أصاب فكرة النضال المشترك في الأسر، عمدت إدارة السجن بعد الإضراب إلى إجراء تنقلات وترحيلات مكثفة للكادر التنظيمي والوطني، لإرباك العملية

²⁴ هي التسمية التي تطلق على الشخص الذي كان الألمان يختارونه أثناء الحرب العالمية الثانية من بين سكان الجيتو من اليهود ليمثل حلقة الوصل بينهم وبين باقي السكان وكثيراً ما كانوا هؤلاء يتعاونون مع القوات الألمانية لينقلوا الأخبار وأماكن المخابئ السرية وذلك مقابل امتيازات مادية وأحياناً مقابل عدم نقلهم كالباقين إلى محارق الحل النهائي.

الديمقراطية والحيلولة دون مراكمتها كتجربة أو نقلها للأسرى الجدد، وقد أبقّت الأطر واللجان بعد أن فرغتها من محتواها وحولتها إلى عبء.

7. عمقت إدارة السجون نظام الصلة الفردي مع الأسرى عبر تقديم الطلبات الخاصة، و الأسرى تقدم وتنجز جماعياً إلا فيما ندر وفي قضايا شكلية ليست ذات قيمة الأمر الذي جعل الكثير من الحلول فردية وخاصة بالشخص والحالة نفسها، ما خلق تفاوت بين الأسرى من حيث شروط حياتهم والتعامل معهم من قبل إدارة السجن، ومنحها أداة ضغط وسيطرة إضافية تستخدمها في التلاعب على التناقضات الوهمية وخلقها بين أفراد وجماعات من مناطق مختلفة.

الجماعية في حال المخالفات الفردية. وهدف هذا التعميم هو تحويل ضغط الأسرى وضبطهم باتجاه الحالة - الأمر الذي يحولهم إلى أداة ترويض لرفاقهم الأسرى وإلى حاملي السلطة بدل

إن مجمل هذه الإجراءات هدفها تحويل الأسير الفلسطيني من ذات فاعلة لها شخصيتها وقناعاتها، إلى يعتمد بالأساس على حاجات مادية يتلقاها وفقاً لإرادة السجان، وتتحوّل بالترجيح إلى جوهر حياته واهتمامه اليومي خصوصاً عندما يعيب أي انشغال أو اهتمام آخر في واقع مغلق كالسجن. هذا بالإضافة إلى أن إدارة السجون تمنح الأسرى تسهيلات بل وتخفق الضرورات لاقتنائهم المواد الغذائية على نطاق أوسع بكثير مما يمنح للسجين الإسرائيلي الذي في الغالب توفر له شروط حياة تفوق شروط حياة الأسير الفلسطيني إلا في الطعام²⁵. وكأن حال إدارة السجون يقول للأسرى الفلسطينيين كلوا واشربوا وانشغلوا بمثل هذه الإحتياجات، المهم أن لا يتحول الأسير إلى ذات يدرك واقعه ونفسه ويفكر بمصيره أو مصير رفاقه.

يحدد ميشيل فوكو، بأن الزنزانية في نظام السيطرة والمراقبة لا تحتفظ إلا بوظيفتها الأولى وهي الحبس، وتلغي وظائفها الأخرى وهي الحرمان من الضوء والإخفاء. فالضوء القوي والرؤية الدائمة يصفهم على أنهم²⁶ والضوء هنا يمثل بالنسبة لنا في السجون الإسرائيلية هي الحياة المادية المعقولة نسبياً التي تحولت إلى شرك، وهذا الشرك بالذات هو ما يجب تحليله وكشف آليات عمله. حيث تحولت البحبوحة المادية إلى أداة تعذيب من جهة، ومن جهة أخرى تقدمها إسرائيل على أنها استجابة لخطاب حقوق الإنسان، لتعرض احتلالها أمام الرأي العام على أنه احتلال نير.

إن الأسرى الفلسطينيين باعترادنا، هم الأسرى الوحيدون في تاريخ حركات التحرر الذين يتلقون مخصصات شهرية تغطي مصاريفهم داخل السجن بانتظام ودون انقطاع تقريباً²⁷ ويتلقون معاشات شهرية كأى موظف في السلطة الفلسطينية²⁸. فنحن كما يبدو الأسرى الوحيدون من بين كل أسرى حركات التحرر الوطني الذين أصبح ليس لها دولة.

²⁵. يسمح للأسرى وبالإضافة لطعام السجن اقتناء 2 1/2 كيلو لكل أسير خضار وفواكه شهرياً. هذا بالإضافة لنفس الكمية من الدجاج واللحم

²⁶. ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة (بيروت):

(1990) 210.

²⁷. يتلقى كل أسير تغطية لمصاريفه في السجن 500 شاقل شهرياً من السلطة الفلسطينية.

²⁸. تتراوح المعاشات التي يتلقاها الأسير من السلطة ما بين 1500 شاقل لغاية 6000 شاقل شهرياً.

إن ما يثير الريبة من هذه الأموال المصروفة للأسرى هو أن إسرائيل التي تحرص دومًا على ملاحقة "الأموال الداعمة للإرهاب" فإنها في حالة الميزانية الضخمة المصروفة على الأسرى، لا نجد لها تبدي نفس الملاحقة أو تبدي معارضة جدية، الأمر الذي يدعو لتساؤل حول دور هذه الأموال والهدف الحقيقي من تقديمها وتأثيرها وتداعياتها على الأسرى ودورهم النضالي.

بين حاليًا في السجون (فهناك صرف خاص بالأسرى المحررين) يصل ما بين صرف كنتين ومعاش شهري إلى ما يقارب عشرة ملايين دولار شهريًا. وهذه مبالغ كبيرة في المقاييس الفلسطينية.

إن الخلل ليس في أن يصرف لأسر وعوائل الأسرى، وأن تؤمن لهم حياة كريمة، بل وليس هناك أي خطأ في أن يوفر للأسرى بعض الإمكانات المادية، لكن عندما يصرف نصف هذا المبلغ على الأسرى مباشرة داخل لسجون، فإننا بذلك نمول احتجازهم، بل ونجعل هذا الإحتجاز مربحًا لإسرائيل. فشركتها هي التي توفر المواد الغذائية و مواد التنظيف للأسرى في إطار اتفاقية وقعت مع وزارة شؤون الأسرى الفلسطينية. لا يوجد هناك مادة يستهلكها الأسرى إلا ويشترونها على حسابهم. لسجون توفر كميات رمزية من هذه المواد، بينما أصبح احتجاز الأسير الفلسطيني في السجون الإسرائيلية على حساب السلطة الفلسطينية، التي تتلقى لهذا الغرض ميزانيات خاصة من الإتحاد الأوروبي والدول المانحة²⁹.

لقد أعفيت إسرائيل من الأعباء المالية لاحتجازها واحتلالها للفلسطينيين، بل ومن نتائج سياساتها ضد الأسرى، فالسلطة الفلسطينية بالإضافة لتعويضاتها الغرامات المالية المفروضة بحق الأسرى³⁰ فإنها تغطي احتياجات الأسرى من سكان قطاع غزة بصرف خاص في ظل منع أسرهم من زيارتهم. هذا بدل أن تحمل إسرائيل تبعات هذه السياسة وأن تلاحقها في المحافل الدولية وأن تحملها مسؤولية هذا الخرق القانوني (الإجراءات بمنع زيارات أهالي غزة سبقت خطف الجندي شليط) لتمثل في احتجازها أسرى من أراض محتلة ونقلهم إلى داخل أراضيها من وجهة نظر القانون الدولي.

إن ما هو حاصل في الواقع هو العكس تمامًا حيث مكن إسرائيل الفلسطينيين بأقل ما يمكن من تكلفة سياسية ومالية وأن تستخدم الوفرة المادية للأسير، والمقدمة أصلاً من الإتحاد الأوروبي، كواجهة تعرضها كدولة تمارس احتلال حضاريًا. هذا بالإضافة إلى أن هذا الحال ميع إمكانية حدوث انتفاضة أو صدام جدي بين الأسرى والسجان، لا سيما وأن الوفرة المادية و ابحوحة النسبية " أسباب المواجهة المباشرة وتميعها.

لقد تحول الأسير الفلسطيني الذي كان لا مصلحة له سوى النضال وتحرير الوطن إلى عضو في قطاع كأي قطاع في السلطة الفلسطينية، كقطاع الموظفين مثلاً، له مصالح مالية ومطلبية، وبمثل هذا المناخ ولجانب مجموعة من العوامل الأخرى ذات التأثير. بالإضافة إلى سياسة التفرغ الممنهجة تتطور ديناميكيات ويتشكل مناخ نفسي وتربوي يقود الأسير الإنتقال بسهولة من النضال التحرري الوطني إلى النضال المطلبي، لكن نضاله في هذه الحالة لن يكون موجهاً بالضرورة ضد سلطة الإحتلال وإدارة سجونها الفلسطينية " " له!! إننا وبكلمات أخرى، نمول وبارادتنا مشروعًا إسرائيليًا لإخراج الأسرى، نواة

²⁹ أنظر تقرير وزارة شؤون الأسرى والمحررين في السلطة الفلسطينية المنشور في صحيفة " " 14378 12.

³⁰ غرامات تفرضها المحاكم الإسرائيلية على الأسرى، وصلت في إحدى دفعات السلطة وفق التقرير المنشور (لغاية اثنين مليون شاقل.

النضال الصلبة، من دائرة الإنشغال بالهم الوطني والنضال التحرري إلى دائرة الغرق بالهمّ المطلي الخاص. الأمر الذي ينسجم مع الهدف والخطة الإسرائيلية العامة، لا سيما الإجهاز على القيم الجامعة لهذا القطاع والتي

كما أن الواقع المادي الذي يعيشه الأسرى يخلق حالة من التشوّه الإجتماعي والنفسي للأسير. حيث تعيش سرى واقعا ماديا أفضل بكثير مما يعيشه أسر كثيرة في الأراضي المحتلة، وعلى كل حال فإن للأسرى يعيشون مستوى من الحياة المادية تفوق قطعاً ما يعيشه الأهل في قطاع غزة في ظل الحصار. الذي يخلق توتراً نفسياً جراء التناقض بين ما يعيشه الأسير من واقع، وبين ما يدركه حول واقع شعبه وما كونه من وعي لذاته بشأن دوره تجاه هذا الشعب الذي يناضل من أجل تحرره. ويصبح هذا التشوّه أكثر عمقا وشمولا عندما يتفاعل في ظل مناخات تسود بها ثقافة إنسانية تتحدث عن نسبية الحقائق القيمة والأخلاقية. ويرتبط الإنسان العادي والمتوسط منهم، فلا يعد مفهوماً وواضحاً له أين يبدأ أو أين ينتهي السجن أو الحرية في الخارج حيث الكنتونات والمعازل.. أم هنا داخل المعتقلات الإسرائيلية.

وعندما يرافق هذا الواقع خطة وسياسة موجهة لتفريغ وفردنة الأسرى، وتحطيم من شأنه أن يحولهم إلى جماعة، عبر مواجهة التفكير أو مجرد الإعتقاد بفكرة العمل والنضال.. أو الهوية المشتركة من خلال إنزال . فإن إمكانية استثمار هذه البحوث المادية لرفع مستوى الأداء الوطني

والإرتقاء بالوعي والإنتماء تصبح إمكانية ضئيلة وصعبة. فهي لم تُوفر كما وضحنا، ببراءة ولوجه الله. إن الخشية من فقدان الوفرة في ظل الحرمان من الحياة والحرية حولتها، أي الوفرة، إلى جهاز داعم للسلطة وصانع لها تلقائياً، بمعزل عن شخوص ممارسيها من شرطة السجون. حيث حولت الأسرى أنفسهم لحاملي السلطة التي يمارسونها على أنفسهم لئلا يفقدوا وفرتهم المادية. ل ومع مرور الوقت يتحول إلى عجز مكتسب لدى الأسرى حتى في ظل غياب التهديد الفعلي بمصادرة مكتسباتهم المادية.

وفي واقع مغلق كالسجون سرعان ما يعمم هذا العجز على الأسرى حديثي التجربة ليغدو عجزاً متوارثاً، الأمر الذي يضمن استمرارية السلطة عملياً حتى في ظل غيابها فعلياً.

لقد اكتفت إدارة السجون بإضعاف البنى التنظيمية للأسرى وأفرغتها من محتواها عبر استخدامها الوفرة وشروط الحياة المعقولة التي حولتها لأداة ذاتية الضبط الداخلي لهم. فهي وإن أتاحت شكلاً معيناً من الحياة المنظمة إلا أن هذا " " الإسرائيلي يبدو . حيث هي شعرة التي تفصل بين الحياة المنظمة والانضباط وبين الخنوع والإمتثال. وهذا الشرك شأنه شأن أي " " - وفرة أخرى تقدمها ما دام توفيرها يوفر لها " " " " - خصوصاً وأن الإخفاء في الظل سيكون من السهل التحريض عليه

إن حالة العجز التي يعيشها الأسرى في قدرتهم على تشخيص واقعهم تجلت بصورة فجة في السنوات الأخيرة وفي الحالات القليلة والموسمية النادرة التي أقدموا بها على التحرك والنضال الجماعي. حيث لجأوا إليها في الماضي مشتقين وسائلهم من قراءات لواقع متخيل لم يعد

ع استهداف الجسد بالهراوة والتعذيب المباشر.

إن الشعور بالمعاناة حقيقي، لكن تشخيص ما يراه الأسرى في الواقع كمصدر للمعاناة ليس حقيقياً، فهم كمن اعتاد تشخيص الواقع "مسامير"، فيرى الحلول أمامه بالضرورة "شواكيش".. وكلما كانت معاناتهم أشد كلما

رغبة في تفسيرها أقوى، مما يقودهم هذا الإلحاح النفسي لتفسير مصدر عذابهم، إلى التهويل والتضخيم، وسرعان ما تتبين الصورة ويصطدمون بحقائق الواقع مما يزيد من عذابهم ووحدهم. لم يعد الأسير بجسده هو المستهدف، ولا يعذب بالحرمان المادي والتجويع وإنما الروح واعقل هما المستهدفان، والوفرة المادية هي وسيلة من وسائل التعذيب الحديث. تعريف التعذيب والقهر والإضطهاد وكشف تفاصيله الحداثوية المركبة. إن الأسير يطحن ويعذب بين شكل الثابت في علب المكان داخل السجن، وبين محتوى الزمن الذي تحرر من أعباء

فالمتغيرات في واقع المكان والحضارة والناس، التي كانت تحدث خلال عام من الأسر قبل عشرين عامًا، هي أقل بكثير مما لا يقاس عما يتغير خلال ع . وما يفقده الأسير من صلة بواقعه خارج الأسر خلال أشهر قليلة أصبح كارثيًا يجعله فاقد الصلة بالحضارة والناس وقيمهم وعلاقاتهم الاجتماعية.. بحيث يتحول خلال أعوام قليلة في السجن إلى متخلف قياسًا للواقع خارجه. إن هذا الفارق يحول بزمن قياسي ير الفلسطيني إلى فاقد الصلة بالواقع ويستغله الإحتلال بكل أجهزته بما فيها إدارة السجون لتكريسه وتعميقه من أجل فصله كليًا عن أي مشروع وطني أو تفكير جماعي ويدفع به للإغتراب كليًا، كافرًا با في أحسن الأحوال يحوله عبء على شعبه وقضيته الوطنية.

السيطرة الحديثة تجليات قيمة خطيرة في حياة الأسرى الفلسطينيين:

إن جوهر الحداثة هو قدرة الإنسان على فصل الزمان عن المكان، كما أن تاريخ الحداثة بدأ مع تطوير الإنسان تكنولوجيا مكنته من السيطرة بشكل مطرد كلما تمكن من إحداث هذا الفصل. المحيط من محيط مكاني إلى آخر بسرعة الألكترونات بات للسيطرة معنى وشكل آخر عما نعرفه. للسيطرة على الناس كان في الماضي لا بد من السيطرة على مكانهم، فيما الحداثة التي فصلت الزمان عن المكان جعلت السيطرة ممكنة بالسيطرة فقط على زمانهم³¹. إن لهذا الشكل من السيطرة تداعيات كثيرة على حياة الأسرى وتقديرهم وفهمهم لأنفسهم. ه تأثيرات على سلوك السجان وإدراكه لذاته ودوره في إطار عمله ضمن جهاز بيروقراطي كإدارة السجون.

لم تعد السيطرة في سجون الإحتلال الإسرائيلي سيطرة مباشرة عبر السجانين الذين كانوا يتواجدون ماديًا في باحة السجن، ويقومون بفتح الأبواب وإغلاقها. ولم يعد كما في الماضي هناك احتكاك يومي بين السجين والسجان، إلا استثناء للتأكيد على قاعدة غيابه منظورًا وحضور ظله عبر آليات وتقنيات حديثة. لقد استبدل البرج المركزي أو ظله في نظام مشتمل بنتهام بالكاميرات المتواجدة في كل زاوية من زوايا السجن، واستبدلت أفعال الأبواب التي كانت تستدعي حضور السجان وتواجهه المباشر لفتحها يدويًا بنظام فتح وإغلاق ألكتروني، حيث يكفي اليوم وجود شرطي واحد في غرفة المراقبة، للسيطرة على قسم مؤلف من مئة ين أسيرًا (120). قد أظهر هذا النظام الأسرى وكأنهم يديرون حياتهم وشؤونهم الداخلية بأنفسهم

³¹. زيجمونت بويمن، الحداثة السائلة (: الجامعة العبرية، 2007) .106 401

وباستقلالية، أو هكذا يمكن أن يعتقد المراقب من الخارج. بل إن هذا الوهم ينطلي على الأسرى أنفسهم. حيث يغلقون أبواب الزنازين بأيديهم، بعد أن يعطي السجناء في غرفة المراقبة والسيطرة الإجازة الإلكترونية لفتحهم. إن هذا الحال لم ينقل السيطرة من السجناء إلى الأسرى، ولم يخففها، وإن كان قد جعلها تبدو أكثر قبولاً. العكس تمامًا، حيث حول السيطرة من سيطرة مرئية مصدرها واضح " " " " " إلى سيطرة آلية شديدة الضبط كلية المراقبة " " " " " ي فيها، أي السجناء، خارج مجال التأثير باستراتيجيات الإقناع فهو أيضًا واقع تحت وطأة كاميرا المراقبة التي ألغت تلقائيتها ومهاراته الإجتماعية وحولتها إلى آلية وأتوماتيكية. وسهلت عملية الأنسنة تجاه الأسير. فهذه المسافة التي صنعتها تكنولوجيا المراقبة بين السجناء والسجين حولت الأخير إلى أكثر قسوة فهو لم يعد يتعامل مع ذات وإنما موضوع يراه . الأمر الذي حول أيضًا مهارات الأسرى كأفراد وجعل ذلك هم الإجتماعي إلى أمر لا ضرورة له وليس ذو قيمة عملية. فالعلاقة بين الأسير والسجناء أصبحت تدار في سياق آخر جديد، لا يتيح له استخدام أو التأثير عبر أي وسيلة من الوسائل القديمة.

لقد أتاحت تكنولوجيا المراقبة والسيطرة الإلكترونية في السجون الإسرائيلية إلى تفرغ أعداد هائلة من القوى البشرية التي تم توجيهها لسجون جديدة افتتحت لاستيعاب الآلاف من الأسرى الجدد. وقد أتاحت سهولة ام وسائل السيطرة الحديثة تجنيد سجنائ ذوي إعاقات جسدية ومكونات بنية ضعيفة لم تؤهلهم في الماضي للتجنيد. واستيعاب سجنائ من الجنيس "اللطيف" تمشيًا مع الخطاب الليبرالي الإسرائيلي في مساواة الجنسين فأصبحت المرأة تشارك الرجل الإسرائيلي في قمع الفلسطينيين أو في إ "صياغته" "ترويضه". إن جملة التناقضات التي يخلقها هذ جانب القدرة على السيطرة الكاملة والشاملة والكلية على أكبر عدد ممكن من الأسرى وفي أقصر مدة زمنية وبنفس الآن، جعل إمكانية تطبيق خطة صهر الوعي لهؤلاء المناضلين الفلسطينيين إمكانية عملية. فالتناقض بين غياب السجناء تجسيدا ووجوده فعليًا كمسيطر على حياة الأسير، خلق لديه حالة من التنافر الذهني بين ما يدركه في الحقيقة ويحسّ به من قمع وسيطرة على حياته، وبين واقعه الذي يظهره في استقلالية نسبية في إدارة حياته.

إن السجن الحديث بصورة عامة ليس سيطرة وحجزًا للجسد فقط، وإنما سيطرة على زمن الأسير. فلم يعد زمن الأسير ملكه ولا يمكنه تنظيم ساعات النهار وفقًا لبرنامج يحدده لذاته، إنه لا يمضي وقته داخل الزنزانة حرًا بزمنه، بعيدًا عن تدخل وسيطرة السجناء، بل إن زمنه خاضع للسجناء الذي يقسم وحداته هكذا بحج يمكنه التصرف به أو برمجه وفقًا لرغباته وحاجاته. فبالإضافة لخروجه للباحة الشمسية بساعات محددة يقررها السجناء، فإن الأسير في السجون الإسرائيلية مجبر يوميًا على مغادرة زنزانته ثلاث مرات حتى يتم فحصها أمنيًا، وعليه أن لا يستخدم الحمام سبعة مرات مختلفة في اليوم، لمدة ساعة كل مرة، ثلاث مرات في وأربعة أخرى أثناء إحصاء الأسرى للتأكد من عددهم – هكذا بحيث لا

يمكنه أن يبدأ يومه أو يخططه.

إن التناقض بين كون الأسير فاقد للحرية ويُغلق عليه باب الزنزانة، وبين كونه يفتح بيديه الباب ويغلقه على نفسه وفقًا لهذا الواقع الجديد في السجون، يدفعه لحاله من التوتر والتنافر الذهني جراء الرغبة في الحفاظ على " " باب والإحساس بالسيطرة من جهة، وبين كونها سيطرة وهمية تدخله لشرك الترويض النفسي والمعنوي من جهة أخرى. إنها حالة أشبه بمنح الأسرى " " والقيود ليقيدوا أنفسهم بأنفسهم.

كما أن الأسير الفلسطيني يعي ذاته ن حول نفسه تصورًا على أنه البطل الذي يقارع الإحتلال وشكل قلًا لأجهزتها الأمنية يعيش، نفس هذا الأسير تناقضًا شديدًا بين هذا التصور الذاتي لنفسه وبين كون سجانته الذي يسيطر على حياته فتاة لا يتجاوز عمرها العشرين عامًا، وتتحكم بقسم مؤلف من 120 أسير . ن هذا التناقض يزداد حدة ويصبح ذ تأثير نفسي جدي على الأسرى عندما يجري الحديث عن أسرى ينتمون لمجتمع بغالبيتته يعتبر سيطرة المرأة على الرجل مهانة وانتقاص من رجولتهم، مما يؤثر سلبيًا على تقديرهم الذاتي لأنفسهم بصورة عامة وعلى تقديرهم الذاتي في القدرة على تغيير الواقع بشكل خاص.

لا ينتهي التناقض في حياة الأسير في ظل آليات السيطرة الحديثة عند بوابات السجن وأسواره.

السجن كما هي مصورة في الأدب والشعر والإعلام، لا سيما الإعلام العربي حضاريًا لا تشبه الصورة كما هي في واقع السجون اليوم، ورغم أن هذا الواقع أشد وأقسى برأينا، إلا أنه لا يوجد أي تطابق بين السجن الوحش في الأدبيات، وبين سجانة فتاة في العشرين من عمرها. لقد تغيرت صورة السجن وأصبح شكلاً وهندامًا أقرب للموظف في بريد أو بنك، الأمر الذي عطل حتى القدرة أو إمكانية استخدام الأدب والشعر بمفرداته ولغته وصوره القديمة لتصوير المعاناة والعذاب دون أن يكون مجافيًا للحقيقة، ودون أن يكون مضخمًا للصورة.

لقد أصبح هناك ضرورة لأدوات أكثر قدرة على تفسير وشرح التعذيب الحديث .

إن مجمل هذه التناقضات التي يعيشها الأسرى الفلسطينيون مضافًا لها الوفرة المادية كأداة تعذيب وضحاها، والتناقضات السياسية بكل ما حملت منذ اوسلو، وبالذات منذ اندلاع الإنتفاضة الثانية، يجعلهم في الأحوال مفتوحين على تفسيرات ومفاهيم جديدة تمنحهم يقينًا بشأن مصدر معاناتهم الحقيقي. لكنهم في ظل غياب التفسير العلمي الملتزم والمنحاز للقضية الوطنية، سيكونون عرضة للتأويلات الإسرائيلية التي تهدف زعزعة قيمهم الجامعة وتسهل عملية صهر الوعي. والسجان يدرك هذه التناقضات تمامًا ويستغلها شرًا

إنه لمن المؤسف حقًا بأن لجان حقوق الإنسان وجمعيات الدفاع عن الأسرى بصورة عامة والفلسطينية منها بصورة خاصة، ما زالت لا تقدم أي تفسير علمي جاد لهذه الممارسات الإسرائيلية التي تقرأها كإجراءات وأحداث منفصلة لا تربطها قانونية أو منطق سياسي. وتتواطأ في تعاملها مع الواقع كما هو، وتنساق في معالجاتها جراء هذه القراءة المتقطعة مع ما هو قائم من آليات وأدوات. ففي أحسن الأحوال تنشر التقارير بشأن هذه الممارسات دون أن تقدم تفسيرًا لها. ولا يوجد هناك أي بارقة أمل في التفكير خارج .

الأمر الذي لم يساعد الأسرى على الخروج عما طورته هذه التناقضات في أوساطهم من آليات دفاع نفسي للخروج من حالة التنافر الشديد ما بين الواقع والوعي الذي شكلوه بشأن هذا الواقع، وذلك ق توازن موهوم يقود لإنكاره. ومن هذه الآليات؛ الأمراض، الكذب، التهويل، تضخيم الذات أو الواقع. ويتبدى ذلك في التقارير

والمعلومات المقدمة للجان حقوق الإنسان وفي التهويل الإعلامي مما يشوه صورة هؤلاء المناضلين، ويحدّ

قدرتهم على مواجهة واقعهم، ويعطل إمكانية النهوض بقضاياهم من قبل اللجان الحقوقية والإنسانية.

جليات هذه السياسة الإسرائيلية في السجون وأثارها تظهر في حياة الأسرى ونظامهم وعلاقاتهم الداخلية في العامين الأخيرين على نحو واضح وخطير. والخطورة بالدرجة الأولى تتمثل بتنكر غالبية الأسرى لهذا

التشخيص آنف الذكر، وذلك لأسباب نفسية ومعنوية حيث يفضلون تحت وطأة الهمّ الخاص، ولدواعي عملية مواصلة الحياة لئلا يضطروا الوقوف أمام استحقاقاته.

إن تنكر الأسرى للواقع وتفضيلهم التواطؤ مع سهولة الحياة القائمة هو بحد ذاته نتيجة من نتائج سياسة الهندسة البشرية التي يتعرضون لها في إطار خطة صهر الوعي، لكن خطورة ما سنفصله هنا من مقيمي جديد في حياة الأسرى، هو أننا نتحدث عن طليعة الشعب الفلسطيني ورأس حربته المقاومة. تستهدف القيم الجامعة لهذا القطاع من الشعب الفلسطيني، بترويضه واستدخال قيم ما قبل وطنية على قاموسه ومنطق تفكيره، إنما تستهدف مقولة الشعب التي يشكل الأسرى بنضالهم طليعة حمايتها مما يعني بأنه سيكون لهذه السياسة الإسرائيلية الآثار المدمرة على مجمل نضال الشعب الفلسطيني وقضيته الوطنية.

لقد تعاطت إدارة السجون مع اللجان الوطنية، واللجان القيادية المنتخبة أو ممثلي الأقسام كما سبق وذكرنا، لكنها حولت هذه الأطر إلى أطر ما قبل وطنية بمحتواها. حيث أصبح تدخلها تفصيلياً عبر إجراءات تنقلات ممنهجة بين السجون. فمثلاً وبهدف تعزيز المرشح " " ين، قامت بنقل أسرى جنين إلى قسمه لضمان انتخابه حيث يمثل القسم الواحد وحدة انتخابية واحدة، بحيث أصبح أعضاء الفصيل المعين في قسم كذا ينتمون جغرافياً بغالبيتهم لجنين. مما حول مفتاح العلاقات الداخلية لكل فصيل بأن لا تحكمه اللوائح الداخلية وإنما الإنتماءات الأولية كالبليات ورابطة الدم والجغرافيا، بل أصبحت العلاقات بين الفصائل لا تخضع للخلافات السياسية والفوارق الأيديولوجية، وإنما تجد اليوم أف من حماس وفتح من مدينة نابلس مثلاً يقفون في وجه شباب من فتح وحماس من جنين³². فالمفتاح الناظم لمجمل العلاقات داخل السجن هو مفتاح الجغرافيا والبلديات. لدرجة أن الفصائل لم تعد هي الجهة التي توفر الأمن والحياة الكريمة وإنما أبناء البلد. حيث أصبح ومدينة مرجع () يبسط الفصيل من خلاله نفوذه على أفراد المنطقة المعينة.

إن هذه القيم ولغاية أواسط التسعينيات لم تكن قائمة في السجون، حيث اعترت في الماضي من قيم العيب المحاربة، والتي لا مكان لها بين الوطنيين لدرجة أن من كان يحاول الترويج لها يحاصر وينبذ اجتماعياً، لكنها، وعندما تسلح شخوص وحامل هذه القيم بالسلطة، أصبحت هي القيم السائدة وقيم المرحلة، ومن يحاول التفكير والعمل خارجها يحارب ويقصى كتمرد على " " . باستخدام السلطة الشرعية الوحيدة، وهي سلطة الفصيل المؤسسة على مفتاح الجغرافيا والبلديات.

إن هذه السلطة تستمد قوتها من جهة من إدارة السجون عبر التنقلات التي تجريها للأسرى بين السجون بما ينسجم ومصالحة شخوص هذه السلطة ويعززها. ن كان بتجميع المقربين منها أو توزيع الخصوم.

" " فعلاً، ومن جهة أخرى، تستمدّها من السلطة الفلسطينية التي تمنح ممثلي هذه القيم من الأسرى قوة حيث يشكلون عنق الزجاجة التي عبرها يصل الدعم المالي وتحل الإشكالات الإجتماعية لأسرة الأسير أو يتابع أمر راتبه الشهري. وهكذا، وبهذا المعنى تعزز السلطة الفلسطينية من حيث تدري أو لا تدري مشروع فكفكة القيم الجا .

لقد حافظت إدارة السجون أيضاً على ما كان قائماً من تقسيم سكني لغرف خاصة بكل فصيل داخل القسم . يم الداخلي لأعضاء الفصيل الواحد موزع ن في غالبية السجون على رافية، أو وفق مخيم مدينة، الأمر الذي يعاكس تماماً ما كان قائماً في الماضي في

³² حتى النضال خارج الأسوار انطبع بهذا الطابع الجغرافي، لاحظوا كيف تشكلت لجان أسرى لكل منطقة أو مدينة ترفع صور أسراها فقط تتحدث إلا بما يخضهم، دون أدنى تنسيق بين جميع هذه اللجان.

. لقد حاربت الفصائل الوطنية في الأعوام ما قبل أوسلو تحديداً مثل هذه المظاهر ووصل الأمر

. إدراكاً منها لأهمية تعزيز الروابط الوطنية والعلاقات التنظيمية

قواعد سياسية طوعية بعيداً عن رابطة الدم أو البلديات. وقد واجهت الفصائل في الماضي إشكاليات جدية جراء موقفها المبدئي الذي كان يتسم بالتطرف أحياناً. لكنها اعتبرت الرضوخ لهذه الروابط

خطأً أحمر يعرض الفصيل وقيمه الوطنية للاندثار. لقد كان التنوع الجغرافي والتعددية عموماً مبدأ البلديات والشلليات فهي . وقد أدرج هذا التحريم في اللوائح الداخلية لكل فصيل، لكننا اليوم

وانسجاماً وهذا ، نجد أن التوزيع المالي القادم من السلطة الفلسطينية يتناغم كلياً مع الجغرافيا كمفتاح، وتشكل هذه الجغرافيا أساساً للتكافل الاجتماعي والعلاقات المادية المتبادلة بين الأسرى، بل حتى طابور الرياضة الصباحية التاريخي أصبح مقسم وتجد كل منطقة تمارس رياضتها وهرولتها رغم ضيق المكان بمعزل عن المناطق الأخرى.

نعم نحن ندرك بأن هذه التفاصيل قد لا تعني شيء بالنسبة للناس خارج الأسوار، لكن من لا يدرك أهمية هذه التفاصيل وتداعياتها النفسية والتربوية على الفرد في حياة مؤسسة مغلقة كالسجون، والتي تمارس على نحو يومي ومكثف لسنوات طويلة على شباب غالبيتهم في العشرينات من عمرهم، لا يمكنه أن يفهم المشروع الإسرائيلي في إعادة صياغة وعي وترويض هؤلاء المناضلين في أدق التفاصيل. إن السجون الإسرائيلية اليوم هي بمثابة مؤسسات ضخمة لطحن جيل فلسطيني بكامله. بل هي أضخم مؤسسة عرفها التاريخ لجيل من المناضلين.

لا يعني هذا الحال كما نصوره هنا بأننا أمام قبول واسترخاء من قبل الأسرى لكننا أيضاً لسنا أمام مواجهة وذلك لعدم إدراك الحالة وتشخيصها. بل هناك في أوساط من يرغبون بالتغيير تخبط وشعور عام بالمرارة من عدم قدرتهم على تفسير حالة الترويح القيمي والمعنوي رغم معقولية الواقع المادي. وهناك ضغط جدد ممن يعيشون تنافراً بين ما كانوا يحملونه من تصور مثالي أو على الأقل إيجابي عن الأسرى والنضال داخل الأسر، وبين ما يواجهونه في الواقع من حقيقة تتناقض وهذه الصورة. الأمر الذي يقودهم لتفريغ هذا الضغط باستخدام العنف تجاه الآخر. والآخر في الواقع الجديد ن ليس السجن غير متواجد مادياً ومباشرة أمامه، وإنما الآخر تجسد بابين المنطقة الجغرافية الأخرى.. مدينة.. أو مخيم.

بعد أن فقدت الآليات والضوابط الفصائلية قيمتها في حسم الخلافات، أصبح استخدام العنف والضرب بأدوات حادة ظاهرة طالت سجون عديدة. إن محرماً في حياة الأسرى لسنوات طويلة، ويؤدي بمستخدميه والملوحين به إلى الفصل والطرده من صفوف الفصيل المعني، أداة حسم للخلافات و " للعلاقات الداخلية.

أسهم في إعادة إنتاج قيم الإنتماءات الأولية من جديد وعزز

لبلديات والإنتماءات الجغرافية. الذين يريدون تغيير هذا الحال، سرى هذه الدائرة

التي تغذي نفسها. بعد أن أصبحت البلديات هي الجهة الوحيدة القادرة على توفير الأمن والحماية في ظل هذا، وتقدم للأسير يقيناً على شكل حماية وتفسيرها وقيمتها هما الوحيدان اللذان في متناول يد الأسير وعقله.

إن التناقض والضغط النفسي الذي يعيشه الأسير لا يقوده دوماً وبالضرورة اللجوء للعنف كوسيلة تنفيذ فهناك قطاعات من الأسرى لجأت لى العزوف السياسي والإنطواء على اهتمامات بعيدة عما قد يوجب

التناقضات والتوترات النفسية داخلها. فقد لوحظ تزايد نسبة الأسرى المهتمين على نحو متطرف بلباقتهم الجسدية فيقضون وقتهم ويكرسون جلّ اهتمامهم بممارسة الرياضة، وفي المقابل هناك فئة مهتمة بمتابعة برامج التلفاز التي في أحسن الأحوال برامج بعيدة كل البعد عن السياسة والهّمّ الوطني، وفي المجمل لم يع الأسير الفلسطيني ذلك الأسير القارئ والمنتج أدبياً داخل السجن كما كان في الماضي.

والحلقات الدراسية والنقاشات الفكرية والأيدولوجية هي سمة هذه الطليعة، بل إن هذه الطليعة في غالبيتها طنية التي تجابه شعبنا، ولا يوجد إلا قلة قليلة ما

. صحيح أن هناك أعداد متزايدة من الملتحقين بالدراسة الجامعية)

المفتوحة في إسرائيل)، إلا أن الدافع والإهتمام يندرج في الغالب في إطار الإهتمام بقيم الذات ومستقبلها بعد ر ولا ينطلق هذا التوجه من قيم المجموع والهّمّ الوطني. إنه شكل من أشكال الهروب من الواقع، وإن كان هروباً محبداً قياساً بالأشكال الأخرى. لكن المعرفة والدراسة الأكاديمية المكتسبة قلما يوظفها هؤلاء الأسرى الدراسية في خدمة المجموع، خصوصاً عندما يرافقها استنكاف وابتعاد عن قضايا الفصيل وهموم الحركة الأسيرة.

وكجزء من الإستفراء بعقل ووعي الأسرى، ولمنع أي إمكانية لتدفق المعلومات التي من شأنها أن تشوش عملية صهر الوعي، فقد حددت إدارة السجن في الأعوام الأخيرة طبيعة الكتب التي يسمح للأسير إدخالها عبر الأهل بكتب الدين والعبادة أو بعض الروايات، أما الأبحاث العلمية والدراسات السياسية والإجتماعية فيمنع إدخالها للسجن تحت حجة "مواد تحريضية".

ع وتفسير الأحلام أو كتب اختبار المعلومات) (.

فهو يدلّ على حجم التشوّه الذي كان من نصيب ثقافة الحركة الأسيرة. هذه الطليعة الفلسطينية التي من المفروض أن تكون أكثر الفئات تسيبياً ووعياً.

وقد استخدمت إدارة السجن للتشويش على وعي وثقافة الأسرى، منع إدخال الصحف العربية بما فيها

48، وخصوصاً الصحف الحزبية والسياسية " " " "

" " باستثناء صحيفة القدس التي تصل الأسرى بعد صدورها بأسابيع. وفي المقابل يتاح للأسرى قراءة الصحف العبرية التي تصل يومياً. أما محطات الراديو فيسمح بالنقاط المحطات الإسرائيلية فقط، بعد أن حددت أيضاً النقاط الفضائيات العربية، بعد شطب قناة "الجزيرة". وأبقت المحطات التي تعتبرها ملتزمة بخط " " "

إدارة السجن بمثل هذا الحصار الثقافي لمنع ما قد يتسلل من خارج الأسوار.

يتسلل أجزاء من الصورة الى الأسرى من القسم المجاور لهم داخل نفس السجن. لئلا يتمكنوا من جمعها في إطار مشهد واحد يقودهم إلى فهم وإدراك الصورة بشموليتها وإدراك الطرف والمرحلة التي يعيشونها.

منعزلة عن بعضها البعض وتمثل سجناً مستقلاً وإدارة السجن تحرص على إبقاء هذا الفصل فصلاً .

إن توزيع الأسرى الفلسطينيين على السجن وفق تقسيمات مناطق كبرى.. .. شمال وتوزيعهم في كل سجن، كما سبق وذكرنا، على الأقسام وفق تقسيمات صغرى؛ مدينة.. قرية.. مخيم، وإحكام الفصل بقدر الإمكان بين المناطق عن بعضها، وتعزيز فصل الأقسام داخل السجن ا .. إن هذا العزل المنهج يفيد تقليص نقل المعلومات والخبرات بين الأسرى، لكنه وبشكل أساسي يحول ضباط الاستخبارات ليصبحوا الجهة الوحيدة المزودة للأخبار والقناة التي يستقي منها الأسرى معلوماتهم. الأمر الذي يمنح هؤلاء الضباط أداة

سيطرة تتمثل في بث الشائعات وتأجيج التناقضات وتغذية الخلافات بين أقسام السجن، ودائماً على أساس اطني وجغرافي مخيم.. مدينة مثلاً إن كان بين أسرى نابلس ومخيم بلاطة أو أسرى جنين ومخيم جنين. دافعين بهذا لتعزيز وتغذية الإلتماءات وفقاً لهذه الصيغ بحيث يستبدل الولاء للوطن بالولاء للمنطقة ح الجغرافيا كإنتماء محل الهوية الوطنية الجامعة. إن الفصل على نحو محكم بين الأقسام مضافاً له الجوع الطبيعي والتعطش الدائم للمعلومات لدى الأسرى الذين يسعون دوماً في حالة العزلة إلى تحديد مكانهم وزمانهم والظرف المحيط بهم يحول قوة السجن إلى قوة مضاعفة يخدمها في تشكيل الوعي لد . لقد أضاف الحسم العسكري الذي قامت به حركة حماس في قطاع غزة عناصر تعقيد جديدة وتشابكات جعلت مهمة إعادة صياغة الوعي في السجن، بل وخارجها، مهمة ممكنة ومشروعاً قبل للتطبيق. لقد وفر هذا الحدث فرصة كبيرة ومادة تحريض دسمة لضبا

المؤججة للصراعات والمفككة لأي مفهوم وطني أو قيمة من القيم الجامعة للأسرى بصفتهم مناضلين. إن أبرز تجليات هذا الحدث في حياة الأسرى هو حالات الإعتداء المادي والمعنوي المتبادلة بين أسرى فريق الخلف في غزة والتي بقيت لحسن الحظ حالات محدودة، وبعضها مفتعل ومقصود من قبل ضباط . إلا أنها كانت أحداث كافية لتضخيمها وتضخيم البعد الأمني ليتم استغلالها لتطبيق قرار الفصل بين أسرى القوى الإسلامية وأسرى حركة فتح. تحديداً في سجون المنطقة الجنوبية الأمر الذي نظرت له وتناغمت معه قلة من النفسيات المهزوزة. " " هذه السياسة الإسرائيلية، بل وأحد أبرز

تجلياتها الـ بينت حجم السيطرة على الـ " " الداخلية وأحداث الحسم العسكري في غزة، هو الصمت الذي راف . حيث جلس الأسرى أثناء هذه الحرب أمام شاشات التلفاز يراقبون الفضائيات العربية (في هذه الأثناء كان التقاط الجزيرة مسموحاً به)

متضامناً أجنبي مع الشعب الفلسطيني م يحرك الأسرى ساكناً ولم يقدموا على أي شكل احتجاجي أو تضامني يمكن ذكره. في خطب الجمعة لئلا يؤدي الأمر

"تحريض"

إن هذا الصمت صدر عن الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة التي كانت وعلى الدوام وعلى مدار تاريخها تُقدم على خطوات احتجاجية وتضامنية مع أي نضال وحركة تحرر في العالم. لقد كان الأسرى يبدعون في إحتجاجهم لمجرد أن هناك مناضلين أكراد مضربون عن الطعام في السجن التركية، أو تضامناً مع مندبلاً وأعضاء المؤتمر الوطني الإفريقي في سجون جنوب أفريقيا العنصرية. لكنهم وقفوا عاجزين عن إصدار موقف أو اتخاذ خطوة احتجاجية أو رمزية واحدة على مدار أيام الحرب على غزة. إن حالة العجز هذه لا تعرض هنا للتشهير بالمناضلين ولا حتى للمعتابة. ليس الموضوع كذلك ولا يعالج بهذا السياق، وإنما جاء لتأكيد على حجم السيطرة الإسرائيلية موضوعياً على الأسرى. من خلال جملة السياسات والإجراءات والضوابط التي تشكل عملية صهر الوعي، والتي كل واحدة منها منفردة لا تعني الكثير، لكنها تشكل في المجل أكثر بكثير من حاصل مجموع مركباتها وتشكل مصانع تسمى سجون مهمتها صهر الوعي لجيل بكامله.

إن الواقع في السجن بكل تعقيداته وحجم الإستهداف والجهد العلمي الحديث المبذول به مضافاً إليه التعقيدات والأزمات السياسية على الساحة الفلسطينية ما كان ليتيح للأسرى الخروج من حالة العجز بقواهم الذاتية وأن

يتصرفوا بغير ما تصرفوا به أثناء الحرب على غزة. فمهمة الخروج من هذه الأزمة ليست من وجهة نظرنا مهمة الأسرى لوحدهم، بل هي مهمة القوى السياسية ولجان الأسرى وحقوق الإنسان بالدرجة الأولى.

وعلى كل حال، لا تتمثل الخطورة بما حدث في تلك اللحظة أو ذلك الموقف الذي لم يتخذ أثناء الحرب على غزة، وإنما الخطورة هي في التناقض والصراع الداخلي الذي يعيشه كل أسير، حيث جاءت الحرب وكثفته وزادت من حدته. الصراع ما بين ما يتصوره الأسير حول نفسه ونضاله مع ما لا يجد له تفسيراً في غياب هذا التصور في الممارسة العملية.

على تقدير حجم الأضرار النفسية والمعنوية جراء هذا ناقض، أو تقدير حجم التقدير الذاتي المتدني للأسير وتداعيات ذلك على النضال الوطني في المستقبل. قادرون اليوم أن نشعر بحجم المعاناة بفعل هذا النوع من التعذيب النفسي.

لم يكن من سبيل الصدفة أن تقدم إدارة السجون مباشرة بعد الحرب على غزة على رفع العلم الإسرائيلي في كل ساحة من ساحات السجون، الخطوة التي لا نعتقد بأنها كانت ستقدم عليها في ظروف أخرى، لو لم تكن تدرك حجم العجز والتشوّه الذي أصاب الأسرى كما أصاب مجمل قواه وفصائله الوطنية والإسلامية.

تعذيب وضرورة أن يُقدم له تعريف جديد يجب أن يشمل هذه السياسات وهذه غير حسية وغير مباشرة، التي تهدف للتدخل في تفكير الأفراد في عملية مسح دماغي زاحف ومتدرج وممنهج، وتحاول أن تهندس الجماعة السياسية وتدخل في العمليات الاجتماعية وتسيطر عليها وعلى نتائجها.

إن طموح مدير السجون السابق يعقوف جنوت عبر عن هذا الهدف وهذه الرغبة في السيطرة، ففي حديث له أدلى به في إحدى ساحات سجن جلبوع بعد تسلم وزير الأمن الداخلي جدعون عزرا الوزارة عام 2006 موجهاً ديته للوزير وعلى مسمع من الأسرى:

" ... عليك أن تكون واثقاً بأنني سأجعلهم () يرفعون العلم الإسرائيلي وينشدون النكفا".